المشرق

السنة السادسة والثلاثون — ك ٢ – اذار ١٩٣٨

الحجارة المُؤَلَّهة

وعبادتها عند العرب الجاهليين

من آثار المرحوم الاب هنري لامنس

اذا درسنا مظاهر العبادات، قبيل الاسلام، في بلاد العرب، ولا سيما في منطقة الحجاز وما يجاورها من انحاء نجد، في تلك المنطقة التي اصبحت «مهد الاسلام» فنالت من اهتمامنا القسط الأوفر؛ اذا درسنا مظاهر العبادات نجدها تكنّ، وراء تنوّعاتها المحليّة، صفةً شاملة هي النزوع الى تكريم الحجارة المؤلّهة، تكريماً لا يختصّ بقبيلة، ولا ينفرد به بلد. وهذا القرآن والشعر القديم شاهدان على انتشار الأنصاب في انحاء الجزيرة. وهل يمكن ان نردّ تأييدَ هذا الانتشار الى شهرة المعبدَين القُرَشيَّين، الصفا ومَروَة — وكلاهما من اسماء الحجارة![1] — فنزعم انهما عملا على إيهام الرواة

1) اطلب ابن دريد: الاشتقاق، ٤٦، ٤٧، ٨٠؛ ابن الاثير: أسد الغابة ٣: ٢٥ (قابل باسم العلم: عبد الحجر)؛ الطبري: التفسير ٢: ٢٥

وجماع الاحاديث الاسلامية بان عبادة الحجارة كانت عامّة في بلاد العرب ؟ ومهما يكن من أمر فان أثريّي العرب القدماء ، والعانين بشؤون الديانات من مؤرخيهم ، أوّلوا مثل هذين الاسمين ، وفهموا مثل هذه المعلومات على طريقة ظاهرية بحتة[١] ، جارين في ذلك على مزاعمهم التقليدية في شمول عبادة الكعبة ، وتفوّق قريش حتى في ايام الجاهلية[٢]. فاخذوا يزعمون ان كل الحجارة التي تكرّمها القبائل مأخوذة في اصلها من الحرم المكّي ؛ على حدّ ما روى ابن هشام عن ابن اسحق ، فقال : « ويزعمون ان اول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حينما ضاقت عليهم والتمسوا الفَسْحَ في البلاد ، الّا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة . حتى سلخ ذلك بهم الى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة واعجبهم .»[٣]

وقد رأينا ان ندرس ، في الصفحات التالية ، بعض مظاهر العبادة ، والمؤسسات الدينية عند العرب الجاهليين مهتمّين خاصّة بما أُهمل درسه حتى اليوم من تأثير الطواف الطقسي في عبادة الحجارة المؤلّهة .

١

« تنتقل القبائل البدوية ، ولكن لا ينتقل موضوع عبادتها . فان الحجارة لا تُحمل مع الظعن ، كما كانت الحال في مظلّة يَهوه[٤] .»

هذا حكم ولهوسن بعبارته الموجزة الجازمة ، وبما يميّز اسلوبه من رغبة دائمة في التفتيش عن الأشباه في الكتاب المقدّس[٥]. ونحن لا ننكر ان كتابه افضل

١) ابن هشام : السيرة ، ٥١ ؛ الازرقي ٧٣ ؛ الدارمي : السُّنَن (مخطوطة ليدن) ص ٣ (وجه) ؛ ابن دريد : الكتاب المذكور ٧٦ وفيها : « اذا وجد حجرًا احسن من حجر اخذه وعبده » ، و٣٢٩ وفيها ذكر سيّد اسمه «ذو المَرْوَة» قد يكون كاهناً (؟) ؛ السيرة الحلبية ١ : ١٦٧ ؛ اسد الغابة ٣ : ٣٢٥ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء ٢ : ٣٧٢ .

٢) اطلب كتابنا ... *Yazīd*, p. 38 ٣) ابن هشام : السيرة ، ٥١

٤) يَهْوَه : اي « الذي هو » ، اسم الله أوحى به تعالى الى موسى في سفر الخروج

٥) Wellhausen, *Reste arabischen Heidentums*[2], p. 102

ما لدينا من بحث في الشرك الجاهلي . على ان احكامه المطلقة الحاسمة قد تكون بحاجة الى شيء من التحفُّظ والاحتياط . وسنعرض لمناقشة واحدٍ منها ، كما سبق لنا فناقشنا بعض قراراته في « الاحابيش »[١] وفي « نصارى مكة »[٢].

قد يمكن الدفاع عن حكم ولهوسن في الحجارة المؤلّهة ، اذا ما حصرنا درسنا في العهد الاخير من الشرك الجاهلي ، وقد وصل الى اقرب حالاته الينا ، اي الى ما قبل الهجرة بقليل . بيد اننا نرى ، في هذا العصر نفسه ، شواهد على نقل هذه الحجارة المكرّمة . من ذلك شهادة ابن سعد بشأن الحجر الأسود الذي « انزلته قريش من ابي قُبَيْس قبيل الإسلام باربع سنين . »[٣] وليس لنا ان نناقش قيمة هذا القول ، ولا ان نقابل بينه وبين ما تورده « سِيَر » الرسول جماء من ان محمّدًا اعاد الحجر الأسود نفسه الى ركن الكعبة ، وقد تمّ ترميمها . على ان ما يهمّنا من الحادث هو ان المؤرّخين ، اذا ما عرضوا لهذا الموضوع في العصر الجاهلي المتأخر، ولا سيما في العصور التي تقدّمته ، يمرّون بسهولة ، في القول عن الحجارة المؤلّهة او تلك الاصنام التي تمثّل المعبودات الجاهلية : الحجارةَ المحمولة او المنقولة ، والحجارة الثابتة . وهذه الحجارة الاخيرة وحدها كانت مركوزة لا تتزحزح من محالّها . وقد تكون منها المعابد الخاصّة بالحجاز ، ولا سيّما معبد مكة . هذا ما قد يظهر من درس تلك الوثائق المتراكمة المضطربة التي جمعها منظّمو « السيرة » الرسمية[٤].

اما الحجارة من النوع الأول ، فيجب على الباحث ان يقرأ بسرعة غريبة ، وسهو عجيب « ايامَ العرب » القدماء ، واخبارَ « المغازي » النبوية ، ليُنكر انها كانت تنتقل مع القبائل من منزل الى منزل ، ولا سيّما في تنقّلاتها الحربية

---

١) راجع : الاحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة ، في « المشرق » (٣٤ [١٩٣٦] ١-٣٣ ، ٥٢٧-٥٥٥)

٢) راجع : النصارى في مكة قبيل الهجرة ، في « المشرق » (٣٥ [١٩٣٧] ٦٩-٩٧ ، ٢٦٤-٢٨٧)

٣) ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢

٤) وقد يبدو في بعض اقسامها تجاهل بأمر هذه الحجارة المؤلّهة ، الّا في ما خصّ « الحجر الأسود » ومعبد الصفا ومروة

وحركاتها العسكرية . وهذا خبر وقعة أُحد ، وقد أنزلته « السيرة » على الرحب والسعة ، يظهر لنا ابا سفيان «يحمل اللّات والعُزّى». [1] ولا يخفى ان ابا سفيان يبدو ، في هذه المجموعة ، سيّد مكة المطاع « وقائد الناس » [2] ، بل « ربّ تهامة ». [3] وهكذا يوليه المحدّث او الراوي اعمال السيّد المدنية والدينية ، تلك الأعمال التي اختصّ بها في القبائل العربية الكبرى مَن جمعوا بين صفة الربّ ، او السيّد ، وصفة الكاهن. وقد اخذ راوي الموقعة بهذه الصفة المزدوجة في شخصية ابي سفيان حتى انه في آخر ذاك اليوم المشؤوم على المسلمين ، يعود فيلتمح الى وجود تلك الرموز الدينية — اي الحجرين المقدّسين — في حوزة ابي سفيان ، اذ يجمله يَصيح مخاطباً اصحاب النبي :

ألا ! لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم ! [4]

ولعلّ من المفيد ان ندرس الاسبقية بين روايتَي هذا الحادث ، وعلاقتها الواحدة بالاخرى. ولكننا نخشى ان نوليها اكثر مما يستحق الحادث من اهمية [5]. فنكتفي بالقول ان الحديث حفظ ذكر وجود الحجارة المنقولة حتى في ما بعد الهجرة بقليل.

وليس المثل الذي ذكرناه بالوحيد من نوعه . فان اخبار الطائف الجاهلية تطلعنا على وجود « اللات » في احدى المعارك المهمّة من حرب الفِجار . وهناك خِباء او « بيت » نُصب قبل المعركة ليكون محلّاً ، على مـا يظهر ، لالإلاهة

١) الطبري ١ : ١٣٩٥ ؛ الاغاني ١٤ : ١٥ ، ٢١ . والحادث ، مأخوذ عن « سيرة » ابن اسحق ، واذاً فهو يرقى الى اقدم المصادر

٢) ابن هشام : السيرة ٥٥٧ ، في شأن أُحُد ؛ وقابل بما في ص ٦٧٠

٣) قابل بما ورد عن « كاهن سيّد اهل تهامة » ابن دريد : الاشتقاق ٢٧٩ . وسنعود الى ذكر الجمع بين رُتبتَي السيّد والكاهن

٤) الطبري ١ : ١٤١٨ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ٢١٦ — معنى « العُزّى » القويّة ، النادرة ، كما لا يخفى. وقد يكون هذا السبب في ذكرها هنا مفردةً . وهي تجمع عادةً مع اللات ، بل تتقدّمها اللات في الأيمان.

٥) أو ترى ولهوسن سها عن هذا الحادث . ام انه يوليه ثقةً اقلّ مما يولي اسطورة ذبح عبد المطّلب ، وقد اكتشف فيها تفوّق هُبَل على سائر المعبودات القُرشيّة ؟ وسنعود الى هذا البحث

الطائف » او « ربّة الطائف » . وكان « مدار » الحباء يمثل حدّ حَرَم منيع لا يمكن خرقه ، فيظلّ ملاذًا امينًا للاجئين[1] . وهذا ما اشار اليه احد الشعراء المعاصرين ، ضِرار بن الخطّاب الفهري ، ذاكرًا انكسار الثقفيين ، وفرارهم مضطربين لائذين بحمى حجرهم المؤلّه ، فقال :

وفرّت ثقيفٌ الى لاتهـا بمنقلب الخائب الخاسرِ[2]

ولقد كان من الممكن ان نستنتج من البيت السابق ان المقصود معبدٌ للّات مبنيّ في المدينة ، لو لم نكن مطّلعين على تفاصيل «اليوم» او المعركة[3] ، عارفين بان اهل ثقيف لجأوا الى ما حول الحباء المقدّس ، وقد ضُرب في ساحة المعركة .

وعلى مقربة من الطائف ، مقاطعة جُرَش ، كان اهلها يعبدون الصنم يَغُوث . وهو من الآلهة اليمنية الأصل التي كثيرًا ما نُقلت من حيّ الى حيّ . وقد لخّص ولهوسن نفسه تنقلات هذا الإله استنادًا الى مرويّات ابن الكلبي[4] .

وهناك بيت شعر على شيء من الغموض ، لسوء الحظ ، من قصيدة لعبيد بن الأبرص قد يشير الى ان بني جديلة تركوا معبودهم الخاصّ في ساحة القتال . وهو :

وتبدّلوا اليعبوبَ بعد إلاههم صنمًا ، فقرّوا ، يا جديلَ ، وأعذِبوا[5]

وليس من شكّ عندي في اننا ، لو درسنا آثار الشعراء الجاهليين بامعانٍ وترتيب ، لوقفنا على تلميحات عديدة من هذا النوع . وكذلك قد نصل الى

---

١) الاغاني ١٩ : ٧٦–٨٠– وكان هذا الحباء يُدعى «بيتًا» لا مضربًا عاديًا (راجع الاغاني ١٩ : ٧٦ في اسفل الصفحة) ويجب ان نفهم « بالبيت » هنا لا *Haus* كما ترجم ولهوسن (*Reste*, 194) بل « قُبّة » طقسيّة تُظلّ الحجر المؤلّه ، بل « الحجر المؤلّه » نفسه احيانًا ؛ وهو بيت إيل اي بيت الله .

٢) الاغاني ١٩ : ٨٠ ٣) الاغاني ١٩ : ٧٦–٨٠

٤) راجع *Reste*, 21 ؛ وقابل بما في : L. Delporte, *L'anathème de Jahvé et le herem préexilien en Israël*, 302, dans *Recherches de science religieuse*, t. V, 297.

٥) ديوان عبيد بن الأبرص : القصيدة ٣ ، البيت ٦ – وجاء في شرحه : « اليعبوب : صنم لجديلة . قال ابن سِكّيت : اعذبوا : كفّوا . » – راجع ايضًا ترجمة الطابع Lyall وما وضعه من تعاليق

النتيجة نفسها في درسنا الرُّجْم الجاهلية في بلاد العرب . وهذا ولهوسن نفسه ينتهي الى الإقرار بوجود « بعض الاشياء المقدّسة التي تُنقل زمن الحرب »[1]. على انه إقرار غير كافٍ اذا ما انتبهنا للامثلة المذكورة اعلاه . وهو، فوق ذلك، لا يتفق مع ما نعرف عن اثر الكهّان وتنوّع اعمالهم وصلاحياتهم، كما سنُبين فيما بعد .

وكأنّ ولهوسن ورجال مذهبه أغمضوا عيونهم حين مرّوا بهذه الآثار من « بقايا الشرك العربي » القديم . والله أعلم بما كانت تحتلّه في هذه « البقايا » مظاهرُ « الدوار »، و« الطواف »، و« المسعى »[2] و« الإفاضة » . ولقد كان في غنى هذه المترادفات[3] منبّهٌ لهم لو شاؤوا ان ينتبهوا . ومن الحقّ اننا لا نعرف ديانةً مثّلت فيها الطوافات الطقسية دورًا يشابه اهميةً واختصاصاً هذا الدور الذي مثّله في الديانة الجاهلية . ولم يكن الحجّ الّا طوافاً طويلًا في موكب عام تقطّعه سلسلة من المحطّات . وقد هجي القرشيّون بانهم لا يحسنون الّا السير في هذه المواكب، فقيل:

فأمّا القتال، لا قتال لديكم؛ ولكنّ سيرًا في عراض المواكب[4]

* * *

ولنذكر ما كانوا يستعملونه من افعال للدلالة على هذه الحركات . كانوا يقولون « أطاف بِ»، ودار بِ». ومعنى هذا، في نظرنا، لا الطواف العادي او الدوران حول الحجر المؤلّه، بل « الزّياح » او الدورة التي كان يُحمل فيها الحجر نفسه « فيُطاف به » او « يُدار به ».[5]

ولا يخفى ان العرب الجاهليين كانوا لا يقومون بغزوة مهمّة الّا اذا اصطحبوا

١) *Reste*, 102, n. 2

٢) لاحظ خاصّة التعابير: « طاف بين »، « سعى بين » . . . (صحيح مُسلم ١: ٤٨٥، ٤٨٦)

٣) ولنضف إليها « العُمْرة » وهي طواف مكّي في شهر رجب . وقد جرّدها الإسلام من معناها الاصلي القديم، كما سنرى .

٤) الاغاني ١: ٢٠

٥) راجع ابن هشام: السيرة ١٤٢

معهم كاهناً يصل بينهم وبين ارادة الاله ، وسادناً يخدم هيكل هذا الإله ، وبعض العائفين والقائفين[1] من المَهَرة في معرفة الغيب وتأويل الإشارات ، واطلاع القبيلة على حركات اعدائها . وكان هؤلاء الموهوبون يفيدون المحاربين بمعلوماتهم الغيبيّة، ومقدرتهم السرّية قبل الرحيل ، وطول الطريق ، ولا سيّما في اثناء المعركة. ولم يكن احد ليشكّ في هذه القدرة الفائقة الطبيعة.[2] حتى ان عبيد بن الأبرص ذكر ما يتعرّض له من النتائج السيّئة في الحرب مَن يحتقر استشارة هؤلاء العرّافين. ومن هذه النتائج تولّد الإيجاس وعدم الثقة في نفوس المحاربين.[3] ولم يكن من الغريب في شيء ، ولا من النادر ، ان يجمع الشخص نفسه ، في ايام الجاهلية البعيدة ، بين رتبتي الكاهن والسيّد . وكان من الطبيعي اذاً ان يرنس هذا الكاهن الجيش المحارب فيقود الغزوة حيث شاء . من هؤلاء القوّاد - السادة - الكهّان كان زهير بن جَناب الكلبي ، وزهير بن جذيمة العبسي . ولقد كان مسعود ، زوج سُبَيعة ، قائد الثقفيين في حرب الفِجار ، من سَدَنة معبد اللات.[4] ولهذا رأيناه ، قبل ابتداء المعركة ،ينصب الخِباء - الملجأ ، ذاك الخِباء الذي نعتقد انه كان يحتوي على « الرَّبّة » او إلاهة مدينة الطائف.[5]

وقد ورث خلفاء الاسلام وولاتهم عن الكهنة - السادة القدماء حقّهم في الصلاة بالناس ، وترؤس الحفلات الدينية. ولهذا كان ما يقومون به من «عَزيمة»

---

١) يذكر ابن دريد قبيلةً فيها اشهر العائفين والقائفين : الاشتقاق ٢٨٨

٢) راجع الاغاني ١٠ : ٢٨ ، وفيها صفة نادرة هي «حازِر» ، «حَزَارة» في الكلام عن بني أسد . والاغاني ١٠ : ٧٣ ، وفيها ذكر كاهن يستشيره الناس قبل الغزوة . اطلب ايضاً عبيد بن الأبرص : ديوانه ، القصيدة ٣ : ٢ . . . البحتري : الحماسة ، الرقم ٨٦٢ ، وفيها اشهر اقوال العرّافين . وفي اسد الغابة ٥ : ٧ ذكر لكاهن يستشير الصنم .

٣) الاغاني ١٣ : ٤١ ، وديوان عبيد في الموضع المذكور .

٤) يُخطي ولهوسن (*Reste*, 130) اذ ينفي وجود هذه المراتب الاكليريكية . وليس في النصوص القديمة ، ولا الحديثة ، ما يجيز له هذا النفي . بل اننا نرى الأمر على ضدّ ما ذهب اليه . وقد نقل ابن هشام (السيرة ٥٥) ما كان معروفاً من ان بني معتّب كانوا كلهم من سَدَنة اللات وحجّابها في الطائف . وبفضل هذه الميزة أرسل النبي المغيرة بن شُعْبة ليضبط ما في بيت الالاهة المذكورة . راجع بحثنا في *Ziâd*, p. 3

٥) الاغاني ١٩ : ٧٦-٨٠

او « مناشدة »[١] ثابت المفعول مضمون التأثير ، كما كان الشأن بعزائم الكهّان ومناشداتهم . ولهذا كان لهم الحقّ بصلاة «الاستسقاء» ايّام الجدب . كل هذه الميزات من تُراث العهد الجاهلي . وقد ظلّ الخلفاء حريصين عليها طول ما كانوا قريبين من العهد البدوي ، متعلّقين بالتقاليد العربية . ولمّا بعدت الشقة بينهم وبين العروبة ، اخذوا يهملون هــذه الميزات شيئاً فشيئاً ، حتى تخلّص منها العبّاسيّون ، فكلّفوا القيام بهـا بعض رجال دولتهم . ومن ذاك الحين اصبح من الصعب الاطّلاع على المؤسّسات العربية القديمة من خلال المظهر الجديد الذي اتّخذه الإسلام.

ليس في بلاد العرب — بل في المناطق التي ندرسها من بلاد العرب[٢] — طبقة اكليريكية خاصة. انما يقوم مقام هذا النظام المعروف في الديانات الكتابية ، طائفةٌ من المتصلين بالآلهة على طريقة بسيطة كالعرّافين ، والزاجرين ، والقائفين ، والسَدَنة . نقول: على طريقة بسيطة ، لأنه ليس لهذه الطائفة ما عيّزها او يرفعها عن سائر الناس. فلا مسحة خاصّة ، ولا رتبة ، ولا رسامة ، ولا إعداد للوصول الى هذه الدرجة . فلا فرق في اساليب المعيشة بينهم وبين ابناء قبيلتهم . لهم ما لها وعليهم ما عليها . لا يتراجعون عن غزوة ، ولا يتأثّمون من اهراق دم . بل كان منهم مَن يقود الجيوش فيُنعت « بكثير الغارات »[٣] ومنهم من يجمع الى لقب « صاحب بيت » القوم ، او « السادن » ، لقب « صاحب فتاحتهم »[٤] دلالةً على بلائه في الغزوات والغارات المهمّة . ومثل هذا كثيرون تارة يدنون قرب المعبد او « بيت الله » ، وطورًا يدافعون على ظهر الفرس المطهَّم ، جامعين بين الكهانة والفروسية.[٥] وقد ينسى الرواة اسم الاله او الحجر المؤلّه الذي

١) الاغاني ١٤ : ٩٦ ؛ ١٠ : ١٥

٢) تاركين « بلاد العرب السعيدة » في الجنوب ، او اليمن ، لأنها تتّصف بتطوّر ديني خاصّ.

٣) راجع كتابنا : *Le Berceau de l'Islam*, I, 257 ؛ والاغاني ٨ : ٦٦ ، وفيه ذكر لكهنة قُتلوا في الحرب ؛ الاغاني ١٠ : ٧٥ ، ٧٦

٤) البكري : المعجم ٢٤

٥) في ابن دريد : الاشتقاق ٢٢٦ ، ذكر كاهن-فارس . و« الفارس » من مرادفات « السيّد » في اللغة القديمة .

يخدمه هؤلاء الفرسان - الكهنة ، ولكنهم لا ينسون اسم الفرس ، رفيق البطل في غزواته المشهورة . وهكذا عرفنا ان الكاهن المشهور عمرو بن الجُعَيد الملقب بالأَفكل[١] ، كان له جواد ذائع الصيت ، نادر الصفات ، اسمه هَبود فكان يُنسب اليه فيقال : « فارس هَبود . »[٢] وقد قُتل هذا الكاهن - الفارس في احدى الغزوات[٣] . وكانت هذه الميتة جديرة به بعد ان اشتهر بالبطش مدة سيادته بني ربيعة كما اشتهر بالبغي كذلك[٤] .

وقد يدعى الكاهن احياناً « بالحَكَم » . وهي رتبة تفرض عادةً رتبة السيادة[٥] ، وتدعو الناس الى استشارة صاحبها ضرورةً قبل القيام بأية غزوةٍ او غـارة .[٦] ولا يخفى ان تأثير هؤلاء « الحكام » واختبارهم الشخصي ، اذا

---

١) نقائض جرير والفرزدق (طبعة Bevan) ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ١٩٧ . و« أفكل » اسم لا صفة كما ظنّ الاب جوسّن في Revue biblique, 1911, 591 ؛ اطلب زهير (في طبعة Ahlwardt) ٩١ ؛ ابن السِكّيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ١٨٣ ؛ حسّان بن ثابت : الديوان ٦ : ١٠ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ ، ٤ : ٣ ، ٢١١ ؛ ياقوت : معجم البلدان (الطبعة المصرية) ١ : ٣٥٢ ؛ الاغاني ١٥ : ٧٥ ، ٢١ : ١٨٦ ؛ الجاحظ : البخلاء ٢٤٧ ؛ اسد الغابة ٣ : ٣٦٢ ؛ ابن الأثير : النهاية ٤ : ٢١١ ؛ وراجع ايضاً المعاجم كلسان العرب والتاج . . .

٢) كثيرًا ما كان يشتهر الفارس بجواده في العصر الجاهلي . راجع ابن دريد : الكتاب المذكور ٨٥ ، ٨٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٦٣ ، ٢٨٦ . وذلك ان الجواد حيوان ثمين عزيز لا يتمكن من اقتنائه الّا الاغنياء المُترفون : الاغاني ١٣ : ٥٢ ، ١٤ : ٦٦ ، ١٦ : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٠ : ١٦٥ ، وقابل بما في الاغاني ١٠ : ١٢ ، ٦٧ ، ١١ : ٤٤ ؛ و Berceau, I, 140 ؛ نقائض جرير والفرزدق ٢٤٧ ؛ ابن قتيبة : المعارف ١٤٠ ؛ العِقد ٢ : ٦٢ ، ٦٤ . ولم يكن العربي يملك عادة الّا جوادًا واحدًا ، واذا زاد فجوادين : الاغاني ١٦ : ٤٧

٣) الاغاني ١٥ : ٧٥ ، ٧٧

٤) قال عنه ابن دريد : « كان سيّد ربيعة وكان ذا بغي » (الاشتقاق ١٩٧)

٥) البكري : المعجم ٤٢ . راجع Berceau, I, 257-258, 370

٦) في ابن قتيبة : المعارف (الطبعة المصرية) ٢١ ، ١٠١ : « حكيم العرب » . وقد ترد اللفظة على صورة « حَكَم » او « حاكم » او « حكيم » وكلّها تدلّ على اضطراب القراءات الاولى بسبب اهمال حروف المدّ (الاغاني ١٥ : ٧٢) . راجع ابن دريد : الاشتقاق ٤٧ ، في شأن الترادف بين « حاكم » و« حَكَم »

قُرن بما كان يُنسب اليهم من انوار علوية ، افادنا مبلغ النفوذ الذي كان لهم ، والأثر البعيد الذي كان لاقوالهم واشاراتهم. واذًا فليس بغريب ان يستشيرهم القوم ، في طريق الغزو ، وان يطلبوا اليهم الدلالة على الغيب . هـذا اذا لم يلجأوا الى ساحرة او كاهنة ، او « ساحرة عجوز » ، يرجون منها معاونتهم على الأعداء . فتُرسل «الأسجاع» النافذة . والأسجاع فقرات غامضة المعنى ، غريبة المبنى ، مسجّعة المقاطع ، ناجعة التأثير حتى انها تقيّد حركات العدوّ عن بعد ، فتشوّش خططه ، وتفسد سلاحه[١] . وقد ظلّ اثر هذه العادات الدينية منتشرًا الى ما بعد الاسلام . فرأينا في وقعة «الجمل» امرأة تُنشد رجزًا تدعو به على جمل علي[٢] بآخذة في عملها هذا ، دون قصد ولا تعمّد ، بذلك التقليد القديم الذي عرفناه لكاهنات الجاهلية . وليس من فرق كبير بين «الرجز» و«سجع» الكاهنات الساحرات.

وكان الجاهليون يلجأون احيانًا في اطلاعهم على الغيب ، الى إجالة السهام او « الأزلام »[٣] . وكان لا بدّ لهذه الاستشارة في مكة من ان تكون قرب الكعبة ، اي انها تفرض قربها من المعبود الخاصّ بالقبيلة[٤] . ولهذا كان القوم ، اذا سافروا ، اهتموا بنقل « البيت » اي « بيت الله » = بيت إيل او الحجر المؤلّه[٥] . ولقـد كان له المركز المهمّ في التشوّف الى معرفة الغيب بواسطة الأزلام او السهام المقدّسة[٦] .

* * *

١) الاغاني ١٢ : ٧١ ، ٧٥ ، ١٨ : ٢١٧ ، ٢٠ : ٤٢ وفيها ذكر « كاهنة تسجع لهم » .

٢) مطهّر المقدسي (طبعة Huart) ٥ : ٢١٢ ؛ قابل بما في الاغاني ٣ : ١٨٩

٣) قابل اليعقوبي : تاريخه ١ : ٣٠٠ . وهناك ذكر لكاهنة كانت حكمًا : اليعقوبي ١ : ٢٨٧ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ [١] : ٤٩ ، ٣٦ – وقد تُستعمل الحصى في معرفة الغيب . ابن دريد : الكتاب المذكور : ٢٧٧ : « الكاهنة تطرق الحصى » (الاغاني ١٤ : ٩٩)

٤) ابن هشام : السيرة ٩٧–٩٨

٥) وهناك « القبّة » التي تنصب للحكَم : الاغاني ١٣ : ٥٤–٥٥

٦) راجع ولهوسن Reste, 132 ؛ الطبري ١ : ١٠٧٥ . ذكر أسرة مشهورة بالعرافة : « بيت عيافة وقيافة » ؛ الاغاني ٢ : ٦٤

لسنا اول من نبّه الى عادة العرب القدماء بوضع جمل وقُبّة في صفوف المتحاربين . اما الغاية من ذلك فهي هياج حميّة القوم في الدفاع عن القُبّة حتى آخر نفس ، بل الموت في سبيل القُبّة .وهو معنى تلك اليمين التي كانوا يقسمونها بان لا يتراجعوا الّا اذا تحرّكت القُبّة . وكثيرًا ما كان السيّد يحلف عنهم فيُقسم « ان لا يفرّ حتى تفرّ القُبّة . »[1] ولِمَ هذه الحماسة في الدفاع عن القُبّة ؟ لِمَ القيام بكل هذه التضحيات على طريقة احتفالية ؟ ولِمَ نرى البكريين ، يومَ ذي قار ، يستعيدون حميّتهم وشجاعتهم ، امام الجيوش الفارسية المنظّمة ، لمجرّد ظهور القُبّة ! ذلك اننا نشهد حفلة دينيّة تظهر رمزًا مقدسًا . فان نصب القُبّة في ساحة الحرب دليل على اهميّة المعركة ، وخطورة الحالة التي تتعلّق بها سلامة القبيلة بل كيانها نفسه . ولم تكن القُبّة لتُنصب الّا في مثل هذه الخطوب ، لا في غزوة بسيطة ، او غارة عاديّة ، او ثار فردي وان تعلّق بشخص السيّد نفسه . والحال ان هذا الاحتفال المؤثّر لا ندرك كل معناه الّا اذا انتبهنا للصفة المقدّسة التي كان العرب يولونها القُبّة والجمل الذي ترفع عليه . يولونها هذه الصفة المقدّسة لأنهما يحملان الحجر المؤلّه ، او الشيء الرامز الى الاله المعبود . وقد لا أُخطئ القصد اذا رأيت اشارةً الى شيء من هذه العادة في بيت للكميت يقول :

وقد آلت قبائل لا تولّي مناةَ ظهورَها متحرّفينا[2]

ومعناه ان هذه القبائل أجمعت امرها في الحرب وأقسمت بانها لا تولّي ظهورها للصنم مناة الموجود في المعركة ، اي انها « لا تفرّ حتى تفرّ القُبّة . » ولا يخفى ان الكميت كان « خبيرًا بايّام العرب »[3] ، وقد طالما انعم النظر ، هو وزملاؤه من شعراء الأمويين ، في منظومات الشعر الجاهلي . ومما يؤسف

1) الاغاني ٢٠ : ١٣٦ ؛ الطبري ١ : ١٠٢٨ ؛ Berceau, I, 193, notes ؛ اسد الغابة ٤ : ٢٠٦ ؛ مسلم : الصحيح ٢ : ١٣٢ . وفيه مثل هذا القسم منسوبًا الى النبي تحت شجرة الحُدَيبيَة . – وقد يستبدل حَجَرٌ بالقبة . اطلب نصر بن مزاحم : كتاب صِفّين (طبعة الهند الحجرية) ١١٧

2) ابن هشام : السيرة ٥٥

3) الاغاني ١٥ : ١١٢

له ان ابن هشام لم يورد الّا هذا البيت المفرد من قصيدة للكميت[١]. وهو لو اكثر من مثله لاستفدنا من آثار هذا الشاعر شيئاً غير «هاشميّاته» المملّة المتتابعة على وتيرة واحدة.

وبعد ظهور الاسلام، في معركة الجمل، نرى الجمل المقدّس نفسه وعليه القبّة. ولكن الحجر المؤلّه غير موجود طبعاً، وقد حلّت محلّه عائشة نفسها، «امّ المؤمنين» تهيج المقاتلين من هودجها او من «قبّتها».[٢] وما عدا هذا الابدال فان المشهد لا يختلف عمّا عهدناه في يوم ذي قار. ولا شكّ في ان بعث هذه العادة الطقسية القديمة لدليلٌ على ان مقتل الخليفة عثمان أثّر في كيان «الجماعة» الاسلامية نفسها. وليست هذه الجماعة الّا وحدة اجتماعية نظرية عمل القرآن على احلالها محلّ الوحدة القبليّة. وقد عمل كذلك على اقصاء المرأة عن القيام بالشعائر الدينية مع الجمهور. « فأُشير عليها اشارة لا تختلف كثيرًا عن الأمر بأن تبقى في بيتها. »[٣] ولهذا رأينا جمل عائشة، في الوقعة المشهورة، يقوم بالمحافظة عليه حَرَس من الرجال.[٤]

ولم يكن الجاهليون ليقرّوا بطيبة خاطر هذا الفصل الجازم في الاسرة البشرية. ذلك انهم، في المظاهرات النادرة في حياتهم الدينية، كانوا يخصّون المرأة بالمركز الأفضل. وقد يفوق عدد الساحرات العرّافات عدد العرّافين في ذاك العصر.[٥] وفي مكّة نفسها كان مفتاح الكعبة بيد امرأة، هي بنت حُلَيل الخُزاعي، استودعته مدةً طويلة حتى تنازلت عن ملكيّته لقُصَيّ.[٦] وفي زمن الفتح، كان المفتاح نفسه في حوزة ام عثمان بن طلحة. ولقد مانعت

---

١) ابن هشام: السيرة ٥٥ : « هذا البيت في قصيدة له »
٢) المسعودي: مروج الذهب ٤: ٣٢٦-٣٢٩ ؛ الطبري ١: ٣٢١٦
٣) Perron, *Femmes arabes*, 319 ، وقابل بما في القرآن ٣٣ [الاحزاب] ٣٢.
٤) مطهّر المقدسي (طبعة Huart) ٥: ٢١٢
٥) راجع Perron, *op. cit.*, 166. وهو ما يشعر به مطالع «السيرة»، ولا سيا سيرة ابن هشام ١٢٢، ٧٦٧ ؛ الاغاني ٣: ١٨٩، ١٣: ١١٠، ٢١: ٢٧٥ ؛ ابن سعد: الطبقات ١ ١: ٤٦، ١١٠، ١٢٦
٦) ابن دريد: الكتاب المذكور ٢٧٢ ؛ الازرقي ٦٢

كثيرًا في اعارته للنبي.[١] وهناك حوادث عديدة نرى فيها النساء لا يتأخرن عن مرافقة الرجال حتى الى الحرب. هذا الفِنْد الزِمّاني، البطل المشهور، يدخل حرب بكر وتغلب، والى جانبيه ابنتاه، «شيطانتان من شياطين الانس ... حتى اذا احتدمت المعركة، وتردّد النصر، تقدّمت احداهما، فخلعت ثيابها ورمتها وسط المعمعة...»[٢] فتقتدي بها اختها وتتقدم متجرّدةً بين الصفوف، صائحة بهذه المقاطع التي استعادتها هند ام معاوية في ظرف آخر:[٣]

ان تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق
او تدبروا نفارق فراق غير وامق[٤]

وفي هذه الحرب نفسها، حرب بكر وتغلب، قام احد البكريين، عوف ابن مالك، فرفع ابنته على جمل له وسيّره وسط مضيق، هونيّةَ قمّة. حتى اذا توسّطها ضرب عرقوبي الجمل. ثم نادى بعد ان اقسم «بمحلوفه»: «لا يمرّ بي رجل من بكر بن وائل — اي رجل فارّ — الّا ضربته بسيفي هذا».[٥]

وان مشهد الاستعداد، قبل معركة ذي قار، لأوفر تأثيرًا. كان العرب متجمعين ينتظرون ان يكمل عدد سادتهم، وهم يتباحثون بشأن مقاومة الفرس. حتى وصل سيّدهم حنظلة بن ثعلبة. وقد تقرّر مجابهة الاعداء. فأمر «بالقبة» فضُربت. وكان يتبعها عدد وافر من النساء. ثم قام حنظلة نفسه الى جمل امرأته فقطع وَضينه — والوضين بطان الناقة، في شرح صاحب الاغاني، اي حزامها. ثم تتبع الظعن بقطع وضنهن.[١] وذلك كي لا يدع سبيلًا لهرب النساء، فيجتمعن كلهن حول القبّة.

وبعد هذه التفاصيل الدقيقة عن حرب بكر وتغلب، وعن حرب ذي قار،

---

١) مسلم: الصحيح [٢] ١: ٥٠٦
٢) Perron, *op. cit.*, 50
٣) وفي هذا دليل على ان هند كانت تعيد فعلةً طقسية او معروفة على هذه الصفة بفضل التقليد، وانظر التفاصيل في الاغاني ١١: ١٢٦
٤) الاغاني ٢٠: ١٤٤
٥) الاغاني ٢٠: ١٣٦ و١٣٧

يُصبح من السهل ان نحزر دور النساء في المعارك . وقد عرض لشرحه بيرون فقال[1] : « وكيف نحكم اليوم ، بتأثير آرائنا واخلاقنا الاوربية ، على ابنتي الفارس البطل الزِّمّاني ؟ لقد رأينا ضبّاطاً يرمون بقبعاتهم امام العدو[2] . . . ولكن كم رأينا من فتيات يتبدهن القوم بمقطع حماسي ، ويرمين بمظاهر جمالهنّ وفتنتهنّ ، ليهجنّ المحاربين ! » .

حماسةٌ وطنيّة ، او هَوَس ديني ! ليكن ما يشاء بيرون على شرط ان يصرف وهمه عن الرغبة في اثارة الشهوات المنحطّة . فان حركة الكاهنات البدويّات تتّجه لا الى حواس رجال قومهنّ بل الى عاطفتهم الدينية القبيلية . وليس لآراء الاوربيين وتقاليدهم من دخل بهذا الشأن . ولا يخفى ان مؤلّف « النساء العربيّات » يتوقّف في ابحاثه خاصّة لدى النواحي التصويريّة من حياة البدو . ولهذا كانت اكثر مقابلاته وتشبيهاته لا تستند الى برهان وثيق . بيد ان وهمه الحاضر ناتج مما في رواية صاحب الاغاني من انتقال فجائي ، وتفصيل دقيق يحول بينه وبين النظرة الشاملة في التأليف الموحّد . وهذا من ميزات الاصبهاني في اكثر رواياته التي انما يسرد فيها كل ما بلغه من دقائق تفصيلية حريصاً على امانة النقل اكثر من حرصه على حسن التأليف الفنّي . وهو لو شاء ان يؤلّف وحدةً متناسقة الاقسام لأخبرنا — كما رأينا في احدى روايات معركة ذي قار[3] — أن « القبة » المشتملة على « البيت » نُصبت الى جنب الجمل المقدّس الذي كان يحملها ؛ ولتغيّر عند ذلك دور « الشيطانتين » الزِّمّانيتين ، والنساء البكريّات ، وابنة عوف بن مالك ،

---

١) Perron, *op. cit.*, 50

٢) قابل بما في ابن دريد : الكتاب المذكور ٢٦٢ ، عن احد المقاتلين انه : « ركز الرمح في قدمه وقال : تُرون أفِرّ . . . » وفي طبقات ابن سعد ٣ ٢ : ١١٧ ؛ واسد الغابة ٤ : ٣٠٦ ان احد الانصاريين رمى حجرًا بين الجيشين وصاح : « لا افرّ حتى يفرّ هذا الحجر » . — وللنُشر الى ان المرأة التي تُنذر بالشرّ تتجرّد احيانًا من ثيابها ، الاغاني ١٥ : ٩٩ ؛ قابل بما في الاغاني ١٤ : ١٣٨ ، وهو معنى القول : « النذير العريان » ؛ راجع ابن هشام : السيرة ٤٢٠ ؛ الطبري ٢ : ٧١٨ ؛ ابن الأثير : النهاية ٣ : ٩٠

٣) وفيها ذكر للقبة ، الاغاني ٢٠ : ١٣٦ ؛ قابل بما في الطبري ١ : ١٠٢٨ ، والشاعر المذكور في الاغاني ٢٠ : ١٤٠ ؛ واني اقترح ان يُقرأ في البيت الرابع « محارم » بدل « محارب »

ملتحقاً بادوار الكاهنات ، او المبصرات ، او حارسات « البيوت » . ومنهنَّ « زرقاء اليمامة » التي كانت تُبصر على المسافات البعيدة . ومنهنَّ تلك المرأة في مكة التي تنبأت بمستقبل محمد المجيد[1] . ومنهنَّ سجاح المتنبئة ، كانت ساحرةً وزوجة كاهن[2]. وبعد الهجرة بالسنين الطويلة ، ظلَّ بعض الصحابة يذكرون من جدّاتهم من كنَّ « ربات بيت في الجاهلية »[3]. وقد تكون البدويَّات من زمان ومن بكر من هؤلاء الربَّات ، فلا عجب ان يتحصَّن في حراسة القُبة حتى الموس ؛ ولا عجب ان يقودهنَّ قومهم الى ساحة الحرب ، وقد اعتادوا نقل الحجر المؤلّه الى هذه الساحة كما قدّمنا ، كما اعتادوا ان يحملوا ايضاً الكاهنات « النفَّاثات في العقد »[4] ، ولهنَّ الباع الطولى في ارسال « الأسجاع » اي تلك الفقرات الموسيقية الغامضة المعنى ، الحاملة مقدرة عجيبة على سحر الاعداء . فوقف حركاتهم وافساد اسلحتهم[5]. ومن العبث ان يفتش الباحث عن معنى صحيح لهذه التعابير ، فانه يضيع في متاهات نبراتها الموسيقية ، وايقاعها السريع المقطَّع ، وقوافيها الجناسية المتوافقة في سيل النَّفَس الصوتي ليس غير . بيد ان هذه « الاسجاع » لم توضع ليدرك معناها الانس ، وكفى بالجنّ لها مدركين اذ يعرفون لغتهم ،

---

١) ابن هشام : السيرة ٩٨–٩٩ ؛ الاغاني ١١ : ١٦١ ؛ مسلم : الصحيح[2] ٢ : ٩٢ ، وفيه ذكر امرأة رأت شيطان النبي .

٢) مطهّر المقدسي : الكتاب المذكور ٥ : ١٦٤

٣) ابو داود : السُّنَن ١ : ١٩٥ ؛ اسد الغابة ٥ : ١٧

٤) القرآن ١١٣ [الفلق] ٤

٥) ولهذا ترى البدو يتأثرون دائماً ، حتى الخوف ، من السجع . وقد لجأ مختار الى هذه الطريقة بعد « عهد السجع » بكثير . — اطلب في ذكر الكاهنات المسجّعات ، والساحرات الاغاني ٢٠ : ٢٤ ؛ ١٠ : ٧١ ، ٧٥ ؛ ١٢ : ٥١ ؛ ابن حنبل : المسند ٣ : ٥١ وفيه التعبير : « سجع اساجيع » اي لفظ الاقوال السرّية الغامضة وهي لغة الكهّان ، ولغة الجنّ ، ولغة الحيوانات المتكلمة باعجوبة . . . الاغاني ١٩ : ٩٩ ؛ ابن هشام : السيرة ١٠-١١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٣٦ ؛ ابن حنبل : الكتاب المذكور ٣ : ٤٢٠ . ويُستعمل السجع في الرقى والعزائم : مسلم . الصحيح[1] ٢ : ١٠٨ ، ١٨٢ . وقد جُمعت عدة امثلة للسجع في *Zeitschr. für Assyriol.*, XXVI, 273... وقد يرد السجع في الاحلام الغريبة : ابن هشام : السيرة ٩١ ، ٩٢ ؛ وفي دعاء الشهيد خُبيب : الكتاب المذكور ٦٤١

فيسرعون مسرورين في تلبية تلك الدعوات المُلحّة المتتابعة.

وهذا النبي نفسه يعظ الناس ممتطياً ظهر جمل[١]. وكان الكاهنات البدويات قد تقدّمنه في استعمال هذا المنبر. وقد اجمعت كتب «الصحيح» على ذكر ما كان يقوم به نساء دَوْس من الاختلاجات، والانعواجات، في طوافهنّ الاحتفالي حول الصنم ذي الخَلَصَة[٢]. ولم يكنّ في هذه المظاهر ليرمين في شيء الى هياج الحواسّ الشهوانية في ابناء قومهنّ. كما ان عمل الزَمّانيّتَين ليس فيه ما يرمي الى مثل هذا الهياج. انما هو من نوع كشف البدوية الحُرّة شعرها لتدفع الرجال الى حمايتها والدفاع عنها. بل هو عمل فاطمة بنت النبي، اذ القت بقناعها عندما اراد عمر انتهاك حرمة منزلها[٣]. وكذلك فعلت نائلة، امرأة عثمان، اذ «كشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك ردعاً لهم»[٤]. ولا يخفى ان اظهار شعر المرأة لمن الحوادث الخطيرة. حتى ان الصلاة تفسد اذا ما حلّت المرأة شعرها[٥]. وكان الملك جبريل يختفي اذا ما القت خديجة حجابها[٦]. وذلك «ان لهذا الشعر حرمة مقدّسة خاصّة. وغاية الحجاب ان يغطي شعر المرأة قبل ان يغطي الوجه. ويعتبر النساء ان نزع الحجاب، واظهار ضفائر الشعر، لا يكاد يبدو اقلّ غرابة من ظهورهنّ عاريات»[٧]. واذاً فليس من شكّ في ان عمل الزمانيتين، على جرأته، كان دافعاً الى هياج الحماسة في قلوب المحاربين، فالى حشدهم حول «البيت» يحاربون وقد دبّت فيهم شجاعة اليأس او الاستقتال[٨].

---

١) مسلم: الصحيح[٢]، ٢: ٢٨، ٢٩

٢) مسلم: الكتاب المذكور ٢: ٥٠٤

٣) اطلب كتابنا في *Fāṭima*, 110؛ نقائض جرير والفرزدق ٨٩؛ الاغاني ١٥: ١٣٩

٤) الجاحظ: رسالة في النابتة ١١٦ (11e Congrès oriental)؛ الاغاني ١١: ١١١؛ البحتري: الحماسة رقم ٧٢٨

٥) مالك: الاحاديث المدوّنة ١: ٩٤

٦) ابن هشام: السيرة ١٥٤؛ اسد الغابة ٥: ٤٣٧

٧) Wellhausen, *Reste*, 199 – راجع، في «حرمة» شعر المرأة، الاغاني ١٥: ٧١. اما الجارية فهي حرّة في اظهار شعرها: ابن دريد: الكتاب المذكور ١٣٩

٨) وقد تكون الغاية من ذلك دفع الاعداء، كما فعلت فاطمة. وذكر عن نساء قريش

وقبل الهجرة ببضع سنوات ، في اثناء حرب بين بني دوس وبني الحرث ، قدم احد السادة بناته الأربع الى ساحة القتال، « فانزلهنّ وبنين بيتاً »[1] . وهو القبّة المعروفة التي تُظلّ « البيت » بمعنى الحجر المؤلّه . وكان البنات من حارساته ، او سادناته شأن الفستال في رومة القديمة في القيام على حراسة النار المقدّسة . ودورهنّ في الحرب ما عرفناه في مواقع البكريين والتغلبيين ومعارك ذي قار ، وغيرها .

وقد تجاوزت هذه العادة زمن الهجرة ، وقرون الاسلام المتتابعة ، فظلّت في

من الخزانة الشرقية — بقلم حبيب زيات

الخرافات الموضوعة على مجاذيب حمص

قديماً

في كتب البلدانيين والمؤرّخين آراء واعتقادات غريبة في تأثير بعض الترب في الطبائع والافهام. ومن ثمَّ كان لبعض المدن عندهم خصائص في تبليد العقول، حتى يغلب على من نشأ فيها التخلّف والتغفّل، كبلدة همذان مثلاً. ومع انها منبت قريحة بديع الزمان، والعشّ الذي درج منه رهط من افراد رجال العلم والفضل، كانت تُتَّهم بتوليد الحمق وضعف الافهام. حتى قال بديع الزمان نفسه فيها، لا شك على سبيل الهزل والعبث:

همذان لي بلدٌ أقول بفضله، لكنه من اقبح البلدان،
صبيانه في القبح مثل شيوخه وشيوخه في العقل كالصبيان. (١

ولما اجاب احمد بن فارس على كتاب ارسله اليه يذمّ فيه الزمان، قال له فيه على مثل هذه الوتيرة: «اثنتان قلما تجتمعان: الخراسانية والانسانية. وانا وان لم اكن خراساني الطينة، فاني خراساني المدينة. والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد. والانسان من حيث يثبت. لا من حيث ينبت. فان انضاف الى خراسان ولادة همذان. ارتفع القلم وسقط التكليف. فالجرح جُبار. والجاني حمار. ولا جنة ولا نار. فليحتملني الشيخ على هِناتي. أليس صاحبنا يقول:

لا تلمني على ركاكة عقلي، ان تيقنت انني همذاني »(٢

ومن المدائن الشامية التي نُسب اليها سوء تأثير التربة في عقول مواليدها، حمص، بلدة القياصرة، ومدفن الصحابة والقوّاد، وموطن العلماء والزهّاد.

١) معجم البلدان لياقوت، طبعة اروبة، ٤: ٩٩١. والبيتان ليسا في الديوان المطبوع بمصر سنة ١٩٠٣

٢) رسائل بديع الزمان، مطبعة الجوائب، ص ١٨١

اشتهرت منذ دخول العرب اليها بكثرة المجاذيب[1] والحمقى من اخلاط العامة. بعد ان سار ذكرها في عهد الرومان والروم بمن نبغ فيها من فرائد النساء اللواتي تبوّأن عرش الامبراطورية الرومانية نظير: Julia Domna, Julia Mesa, Julia Soémias et Julia Mamea وولدن بعض قياصرة رومة مثل: Héliogabal et Alexandre Sévère

والى حمص ينتمي ايضاً البابا القديس انيقيطس Anicet (١٥٧–١٦٨) والعالم لونجان ، ووزير زينب ملكة تدمر (٢١٣–٢٧٣) فكيف انقلب التبر صُفرًا[2]. واصبح الفخر عَرًا ؟

واذا نظرتِ الى البلاد ، رأيتها تُثري ، كما تُثري ازجال ، وتُعدم[3]

قلنا: ولا تعدم الحسناء ذاما. فلا يضرّ حمص هذه المقالة الشنعاء. وقد خرج منها من ذوي الحجى والعقل. وارباب الذكاء والفضل من تضيق بنا هذه الصفحات لو اردنا تعداد اسمائهم في الاسلام. وحسب حمص فخرًا في القرنين الاخيرين أن منها قام اول من ايقظ الادب العربي بعد رقدته ، وانهض جواد الشعر والعلم

---

١) المجذوب في عرف الصوفية والفقرآء من اهل الطرق: « من لا شيخ له . يريدون بذلك انه جُذب الى طريق الخير والصلاح.» (وفيات الاعيان لابن خلكان ٢: ٥٥٦) ثم كثر من هؤلاء المجاذيب ظواهر التفنل والتخليط في الكلام . والنياب عن الوجود . فعُدّوا كالمجانين. وصارت لفظة الجذب او الجذبة مرادفة للجنون. قال ابن تغري بردي في ترجمة الشيخ المعتقد المجذوب عمر البياني المتوفى سنة ٨٦٨ (١٤٦٣/٤ م): «قدم القاهرة ونزل ضيفاً بخانقاه سعيد السعدا. ودام على ذلك دهرًا الى ان ظهر منه نوع من الجنون يسمونه جذبة» (السابع من النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة ليدن ، ص ٧٨٥–٧٨٦) ثم تنوسي مدلول اللفظ الاصلي ، وغلب عليه معنى الابله والاحمق على الاطلاق . ومنه قول شيخ الاسلام المولى اسعد للشيخ احمد القاري المتوفى سنة ١٠٤١ (١٦٣١ م) لما انكر عليه حلق اللحى: « استاذكم كان مجذوبا وانتم عقلاء. » (خلاصة الاثر للمحبي ١: ٢٦٠)

٢) لا بأس ان نذكّر ان الصفر هو النحاس الاصفر . واليه انتسب يعقوب بن الليث الصفّار ، احد الخوارج على الخلافة العباسية ، المشهور في القرن الثالث للهجرة. وهذه العبارة اخترناها وتصرفنا فيها بما يليق بالمقام ، في تعريب معنى البيت المشهور:

Comment en un plomb vil, l'or pur s'est-il changé ?

٣) البيت لابي تمام. وقبله:

ارض مصرّدة ، وارض تثجم ، منها التي رُزقت ، واخرى تُحرَم .

بعد كبوته. نظير آل البحري، وكرامة، واليازجي، والحمصي، من مشاهير المسيحيين، فضلًا عن بعض ادباء المسلمين. ومن حمص كذلك أُسرة المعلم ابرهيم الحوراني. والسيد بولس مسعد البطريرك الماروني[1]. ولو لم يكن لها من المزيّة والمأثرة الا انها انبتت ارومة بيت العلم، ودوحة الذكاء والفهم، من نوابغ اليازجيين، لكفاها فضلًا تتيه به على كل بلد في الشام.

ومما برّز فيه ايضاً اهل حمص صناعات النسيج نظير اخوانهم من دمشق وحلب وحماة. ومن متفنني المتأخرين محمد الحمصي النسّاج المعروف بالفقير المتوفى في رجب سنة ٧٩٧ (١٣٩٥ م) قال ابن قاضي شهبة: كان استاذًا في نسج القماش على اختلاف انواعه. وله فهم وذكاء. نسج الصوف الابيض مع الحرير فجاء في غاية الحسن ونسج ايضاً كذلك ملوّنًا[2].

ولا سبيل اليوم الى معرفة هل كان لهذه الخرافة صدى سابق في دولة الرومان والروم. ولم يبلغنا عنها اقلّ ذكر في الآثار الارامية. ويؤخذ من قول ابي

١) لدينا رسالة من الصديق صاحب العزة، الشاعر الالمعي، قسطاكي بك الحمصي بحلب بتاريخ ٧ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٠ كتب لنا فيها: «اما سؤالكم عن تاريخ هجرة جدنا «الاعلى» من حمص فلا اعلمه على التحقيق. ولكن حدثني عمي عن جدي عن ابيه ان الجد الاعلى الذي هجر حمص ميخايل مسعد قد هجرها منذ ثلاث مئة سنة وسكن حلب فسمي ميخايل مسعد الحمصي. ثم تنوسي اسم مسعد وبقي اسم ابنه ابرهيم الحمصي. وغلب ذلك على عقبه يوسف ثم على اولاده ميخايل، وجرجي، ونعمة الله، وبطرس. ثم على ابنائهم ومنهم يوسف بن بطرس رحمهما الله وهو والد هذا العاجز. وقد روى السيد بولس مسعد، بطريرك الموارنة، انا وآله من اصل واحد. ذهب اخ الى لبنان وظل حافظًا كنيته. وقصد الاخ الثاني حلب. وهذه الرواية من اصدق الروايات لان البطريرك، رحمه الله، كان من اعلم الناس باصول بيوتات هذه البلاد. فأحرِ به ان يكون قد نقب عن اصل اجداده. وما ذكرتموه من رواية علامة العصر الشيخ ابرهيم عن عامه ان احد اجداده الكرام هجر حمص فهو قد صرّح بذلك في بيت من قصيدة كان تفضل بها على هذا العاجز يقول منها في مدح حلب:

بلدة بجدها تواصل في الأعـــمار مثل الإعصار في مجراها

الى ان يقول:

ورعى الله ارض حمص وحيّت   نسمات الصبا خصيب ثراها
هي فردوسي القديم، ومنها   ثمرات الحياة كان جناها»

٢) الذيل. باريس ١٥٦٩، ص ١١٢

الفرج الاصبهاني ان اهل حمص كانوا كلهم من اليمن. ولم يكن فيهم من مُضَر الا ثلاثة ابيات[1]. فهل كان من هؤلاء اليمنيين قوم عرفوا بالبله وقلة الفطنة ؟ وعلى كل ففي ايام عمر بن الخطاب كانت هذه التهمة قد انتشرت بين الناس. ولذلك لما تم فتح البلاد كتب عمر، فيما رووا، الى حكيم من حكماء العصر وقال له: «صِف لي المدن واهويتها ومساكنها». فكتب اليه: «اما الشام. فسُحب واكام. وريح وغمام. وغَدَق رُكام. ترطب الاجسام. وتبلّد الاحلام. وتصفّي الالوان. لا سيما ارض حمص فانها تحسّن الجسم. وتصفّي اللون. وتبلّد الفهم. وتنزح غوره. وتجفي الطبع. وتذهب بمآء القريحة. وتنضب المقول.»[2] وهذا الوصف من انكى ما قيل في حمص ولا يخفى ما فيه من التخريف والميل الى الإغراب والمغالاة بمحاكاة اسجاع الكهّان. ولا شك انه من مسموعات المسعودي عن اهل العراق الموضوعة لانتقاص اهل الشام. ومما يدلّ على ضعفه ان الرواة اختلفوا في الحكم على ارض اهل حمص. فذهب بعض المتقدمين الى انها اصح بلدان الإسلام تربة وهواء. وادعى آخرون بالعكس فساد تربتها وهوائها. وسننقل فيما يأتي نص شهاداتهم. ولعل كلا القولين صدى ما كان شائعاً وتنذرٍ من جمال اهل حمص وحماقتهم. اذا صح انه كان فيهم جمال، ولم تكن هذه اللفظة محرّفة عن «خبال» كما هو الارجح. والا فليس في تربة حمص وهوآئها ما يميّزها هذا التمييز عن سائر الشام.

وقد دفعنا حب الملحة والطرفة، والولع بالتنقيب عن كل أُنف غريب، الى مراجعة اكثر كتب علمآء البلدان. وتقلية كل ما طالته يدنا من المصنفات الادبية لجمع كل ما جآء فيها من الاشارات والحكايات عن اهل حمص، وسردها بحروفها حرصاً على ما فيها من الجدّة والنكتة. ولا شك ان كثيراً منها ردّد فيه الآخر صدى ما قال الاول. وزاد فيها السُمّار والقُصّاص ما شاءت قرائحهم من الذيول والفضول. رغبة في الإغراب والإطراب.

ومن اهزل ما وقفنا عليه ان حمص لم تُبتَلَ بهذه الريبة والمصيبة الّا لوجود

---

١) الاغاني، طبعة بولاق، ١٢: ١٤٢

٢) مروج الذهب، حاشية نفح الطيب، للمسعودي ١: ٦٥٥-٦٥٦

حرف الصاد في اسمها . وهو قول البشاري المقدسي بكل جدّ ووقار — وهو اعقل البلدانيين واكثرهم درساً واطّلاعاً — « كلّ بلد فيه صاد فاهله حمق ، الا البصرة . فاذا اجتمعت صادان مثل المَصِّيصة وصرصر فنعوذ بالله . »[1] ولا ندري لمَ اقتصر على استثناء البصرة ، ولم يخرج مصر وصور وصيدا وصفد واشباهها فهل كان فيها ، في اعتقاده ، قوم حمقى ؟ وهل ترى انتقل اسم حمص الى مدينة اشبيلية في الاندلس بنزوح قوم من اهل حمص الشام اليها ، أفسد هوآء اشبيلية ايضاً لمكان حرف الصاد في اسمها الجديد . وهل كان في عامتها من المجاذيب والمغفلين مثل ما كان في الوطن القديم . ولا نعلم هل ورّى احد من ادباء الاندلس الى شيء من ذلك . وهذا ابن جبير الرحالة المشهور ، وهو من غرناطة ، غير بعيد عن اشبيلية ، لم يخطر له الالماع الى هذا القبيل مع انه لم ينسَ ان يستعلم اشياخ حمص بالشام حين مروره بها هل كان فيها بيمارستان كما سننقل من لفظه.

وهذه اقوال اهم البلدانيين في جارة العاصي :

« حمص من اصح بلدان الاسلام تربة . وكان في اهلها خبال مفرط . »
(المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة ليدن ، ص ١١٧)

« لا أبله من اهل البحرين . ولا احمق من اهل حمص . »
(احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ، طبعة ليدن ، ص ٣٦)

« حمص . البلد شديد الاختلال . متداعٍ الى الخراب . والقوم حمقى . »
(احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ، طبعة ليدن ، ص ١٥٦)

« حمص اهلها موصوفون بالجمال المفرط ، والبلاهة . »
(آثار البلاد واخبار العباد للقزويني ، طبعة ليدن ، ص ١٢٤)

« حمص مدينة من اصحّ بلاد الله هوآء . واهلها موصوفون بالتغفّل ، والناس يضعون عليهم حكايات هي سوآء والخرافات . »
(مناهج الفكر ومباهج العبر لمحمد بن ابراهيم الوراق ، لوندرة Add. 7483, f° 180)

« من عجيب ما تأملته من امر حمص فساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل حتى يضرب بحماقتهم المثل . ان اشد الناس على علي (رضه) بصفّين مع معاوية كان اهل حمص . واكثرهم تحريضاً عليه وجدّاً في حربه . فلما انقضت تلك

١) احسن التقاسيم للبشاري ، ص ٣٥–٣٦

الحروب ومضى ذلك الزمان صاروا من غلاة الشيعة حتى ان في اهلها كثيراً ممن رأى مذهب النصيرية واصلهم الإمامية الذين يسبون السلف. فقد التزموا الضلال اولاً واخيراً. فليس لهم زمان كانوا فيه على الصواب.»

(معجم البلدان لياقوت ، طبعة اروبة ، ٢ : ٣٣٨)

« اهل مدينة حمص يوصف عامتهم بقلة العقل. ويحكى عن سوقتهم حكايات شبيهة الخرافات. »

(نخبة الدهر لشمس الدين الدمشقي ، ص ٢٠٢)

. « سألنا احد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات. فقال وقد انكر ذلك « حمص كلها مارستان » وكفاك تبييناً شهادة اهلها فيها ».

(رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٨)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة وخفة العقل. »

(تحفة العجائب وطرفة الغرائب لابن الاثير الجزري ، باريس رقم ٥٨٦٣)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة وخفة العقل. »

(خريدة العجائب لابن الوردي ، مصر ١٣١٦ ، ص ٣٢)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة وخفة العقل.»

(اخبار البلاد لبرهان الدين البقاعي . باريس ٥٨٦٢)

« حمص اهلها موصوفون بالبلاهة. »

(اخبار الدول للقرماني ، ص ٤٤٦)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة ، وخفة العقل. »

(نشق الازهار لابن اياس ، باريس، ص ١٢٧ ، رقم ٢٢٠٧)

« حمص اهلها موصوفون بالجهال والبلاهة. ».

(تلخيص الاثار لعبد الرشيد الباكوي، باريس رقم ٢٣٤٦، ص ٢١)

وهلمّ جرّاً.

ومن هذه الشهادات تتضح كثرة تقليد المؤلفين في الاسلام واقتصار المتأخر على نسخ قول المتقدم باللفظ الواحد ، دون تحقيق ولا استدراك.

وفي كتب الادب نظائر هذه الاقوال. وهي ولا شك حكاية ما كان شائعاً مستفيضاً في وقتها . وقد سمى الحريري في مقامته الحلبية ، وهي السادسة والاربعون ، مدينة حمص « بقعة النوكى » وقال فيها : « اغراني البال الخلو. والمرح الحلو. بان اقصد حمص لاصطاف بقعتها. واسبر رقاعة اهل رقعتها ». وقال

الفنجديهي في شرح هذا القول : « باهل حمص يضرب المثل في الحماقة . وكثرة الرقاعة . وتنسب اليهم حكايات مضحكة .»[١] وقص على الاثر نادرة عنهم سننقلها فيما بعد .

وروى ابن العبري في احاديثه انه قيل لبعضهم : « اعدد لنا المجانين الذين في حمص . فاجاب هذا يصعب لكثرتهم . فان اردتم اني اعدّ لكم العقلاء الذين فيها وهم قليلون .»[٢] ومثل هذا الجواب يراد به النكته لا حكاية الواقع في الحقيقة . فلا يجب ان يؤخذ على ظاهره . وهو ما صرّح به اليونيني لما اشار الى اختلاف الملك الصالح اسمعيل بن شيركوه ، صاحب حمص ، والامير عماد الدين بن المجبر ، وتنازعهما في مجلس السلطان الملك الناصر في قتال التتار . قال : «فقال له الملك الصالح انت ، كما قيل ، طويل ، ولحيتك طويلة . فقال له عماد الدين الا اني ما ربيت في حمص » . قال اليونيني : اشار الصالح الى ان الطويل القامة واللحية يكون غالباً قليل العقل . واشار عماد الدين ، رحمه الله ، الى ان من ربي في حمص يكون اجدر بقلة العقل . وهذا انما تقوله العوام لا على وجه الحقيقة . »[٣]

وحكى المحبي في ترجمة عبد النافع بن عمر الحموي ، من ادباء القرن الثاني عشر للهجرة انه « ضاق عليه حمى حماة . فاقلع الى طرابلس الشام وسكنها وكان حاكمها اذ ذاك الامير يوسف بن سيفا . فمدحه وتقرب اليه . وكان بطرابلس رجل متصوّف من اهالي حمص يدعى بعبد النافع ايضاً . وكان الامير يوسف يودّه فاتفق ان الامير ارسل لعبد النافع الحموي مالاً من مرتّبه على صدقات السلطنة بطرابلس . فاخذها رسوله الى عبد النافع الحمصي لاشتراك الاسم . فلما وصل الخبر الى الحموي قصد الامير وقال له ان اشتراك الاسم قد يضرّ . وهذه دراهمي ذهبت الى عبد النافع الحمصي . فلا بد من تمييز يكون سبب رفع الاشتباه . فقال له انظر وصفاً مميزاً . فقال له انا اكون عبد النافع الشاعر . يشير الى ان يكون عبد النافع المشعور لانه حمصي . والمشهور ان اهل حمص مشعورون في

١) الثاني من شرح المقامات للشريشي ، ص ٣٤٤–٣٤٥

٢) الاحاديث المطربة لابن العبري (المشرق ٢٠ [١٩٢٢] ٧٧٨)

٣) كتاب الذيل على مرآة الزمان لليونيني . خزانة اكسفرد Poc. Or. 132 f°, 47b

العقل لنقصانه فيهم . فضحك الامير . وارسل اليه المال الذي ذهب الى الحمصي »[١]

وقد وردت اشباه هذه الاشارات في الشعر . ومنها ما نقله ياقوت الرومي في حديث اسنده الى ابي الحسن المبدع . قال فيه :

« كان الآمـدي (علي بن الحسن الحموي) يتولّى ارزاق الشعرآء والمتعطّلين والكتّاب . قال ومنع الحسن بن بشر الكاتب المصري ارزاقه . فعمل فيه قطعة اولها :

إن طغى الآمديّ طغيان مُثْرٍ راشه الدهر ، فالمريش يُحَصّ
ايها الآمدي ، عقلك قـد دلّ على ان آمد اليوم حمص (٢

ونسب العماد الاصفهاني هذين البيتين لمحمود بن عبـد الجبار الاندلسي الطرسوسي وروى لهما بيتاً ثالثاً :

بسواد الرماد تخضب شيباً فلهذا سواده لا يبصّ (٣

واقبح ما هجي به اهل حمص قول احد الشعراء :

لاتخم اهل حمص لا عقول لهم ، بهائم غير معدودين في الناس

والذي دعاه الى هذا الفحش انه كان في حمص في دير مياس عظام شهيد من الشهدآء كانوا يستشفون بها من الامراض . فاتفق ان البُطين الشاعر مرض . قال ياقوت : فجاؤا به اليه يستشفي فيه . فقيل ان اهله غفلوا عنه . فبال قدام قبر الشاهد . واتفق ان مات عقيب ذلك . فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله . وقصدوا الدير ليهدموه . وقالوا : « نصراني يقتل مسلماً ؟ لا نرضى او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها » . فرشا النصارى امـير حمص حتى دفع عنهم العامة . فقال شاعر يذكر ذلك :

يا رحمتا لبُطين الشعر ، اذ لعبت به شياطينه في دير ميّاس
وافاه ، وهو عليل يرتجي فرجاً ، فرده ذاك في ظلمات ارماس
وقيل شاهد(٤ هذا الدير اتلفه حقّاً ، مقالة وسواس وخنّاس

---

١) الثالث من خلاصة الاثر ، ص ٦٠-٦١

٢) ارشاد الاريب ٥ : ١٨١-١٨٢

٣) خريدة القصر . باريس ٣٣٣٠ ، ص ١٢٢

٤) يستدلّ من هذا البيت ، ومن كلام ياقوت الذي تقدمه ، ان «الشاهد» كان يستعمل خطأً في موضع « الشهيد » . وقد ورد هذا الاستعمال غير مرة في كتاب الديارات للشابشتي .

أأعظُم باليات ذات مقدرة على مضرّة ذي بطش وذي باس ؟
لكنهم اهل حمص لا عقول لهم ، جانم ، غير معدودين في الناس (١

واشتقّ بعضهم من اسم حمص فعلًا للدلالة على التخلّق بالاخلاق المنسوبة الى اهلها. وكما قالوا تبغدد وتدمشق ، قال ابن القطان الشاعر البغدادي يهجو من ابيات له :

كلما قلت قد تبغـــدد قومي ، تحمصوا (٢

ولنأت الآن على سياقة الحكايات الموضوعة على مجاذيب عامة حمص ، نسردها بحروفها على سبيل البلاغ والفكاهة . ولا يخفى ما فيها من الاختلاق والتخريف حبًّا بالتسلية والهزل .

١ عرض هشام بن عبد الملك الجند . فاتاه رجل حمصي بفرس . كلما قدمه نفر . فقال هشام : ما هذا لعنه الله؟ فقال: يا سيدي، ما هو الا فاره. ولكنه شبهك ببيطار كان ينعله فنفر[٣].

٢ قال الجاحظ : مرت بحمص عنز يتبعها جمل . فقال رجل لآخر : هذا الجمل من هذه العنز ؟ فقال الآخر: كلا . انه يتيم في حجرها . قال القزويني،

منها في كلامه على دير برقوما (مرتوما) قال : « هذا هو الشاهد الذي ترعم النصارى ان له سبع مئة سنة وانه ممن شهد المسيح » (ص ١٢٢) ويحتمل هنا ان يكون الشاهد بمعنى من ادرك المسيح ومن قُتل في سبيله . ولكن هناك امثلة اخرى يتحتّم فيها معنى الشهادة لا الشهود . منها قوله في دير باطا: « وشاهده يعرف بربكس (مار بَكُس) » (ص ١٢٢) . ومنها قوله في دير يحنّس بدمنهور في مصر : « اذا كان يوم عيده أخرج شاهده من الدير » (ص ١٢٤) ولبعض الدمشقيين (سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥م) قصيدة تغزل فيها باحد غلمان النصارى . وقال من جملة اقسامه فيها :

بالطور ، بالزبور ، بساكن القبور
من شاهد مشهور ، اعطف على المهجور

(تهذيب ابن عساكر ٤: ٢٥٩–٢٦٠)

ولشهاب الدين العمري يذكر عُمر آتراعيل « والشاهد فيه مار ميخايل » ومثله في دير مياس « يزعم رهبانه ان به شاهداً من الحواريين » (مسالك الابصار ، ص ٢٨٧ و ٣٢٠)

١) معجم البلدان ، طبعة اروبة ٢: ٧٠٢–٧٠٣

٢) فوات الوفيات للكتبي ٢: ٢٦٥

٣) التذكرة لابن حمدون . خزانة بريتيش موزيوم Or. 3179 f, 208vo

بعد ان روى هذه النكتة : «واما حكومة قاضي حمص فمشهورة . ذُكر انه تحاكم اليه رجل وامرأة . فقالت الامرأة : هذا رجل اجنبي مني وقد قبّلني . فقال القاضي : قومي اليه وقبليه كما قبّلك . فقالت : عفوت عنه . فقال لها مُرّي راشدة . »[١]

٣ كان سعيد بن سنان ابو مهدي مؤذن المسجد الجامع بحمص . وكان شيخًا صالحًا . وكان يسحّر في رمضان ويقول في تسحيره : «يا أهل حمص اسخنوا قُديراتكم وعجلوا . عجلوا في اكلكم قبل ان أُؤذّن فيسخّم الله وجوهكم»[٢]

٤ حكي عن بعضهم قال : دخلت حمص وفي فمي درهم لاشتري به بعض ما اشتهيه . فاذا برجل بباب الجامع جالس على كرسي . وعلى رأسه عمامة محنّك بها على قلنسوة . وقد لبس فروة مقلوبة بلا سراويل . وقد تقلد بسيف . وفي حجره مصحف يقرأ فيه . وعنده كلب رابض يمسكه بقوده . فسلمت عليه فرد السلام . وقلت له : أترى القوم صلّوا . فقال لي : أوَ انت اعمى . اما تراني قاعدًا ؟ قلت : من انت ؟ قال : انا ابو خالد امام الجامع . وقلت : ما هذه الحلية ؟ قال : ورد رجل زنـديق يقرأ السبع الطوال ويشتم ابا بكر الصناديقي . وعمر القواريري . وعثمان بن ابي سفيان . ومعاوية بن ابي غسان الذي هو من حَمَلة العرش . وزوّجه النبي ابنتهُ عائشة في زمن الحجاج بن يوسف فاستولدها الحسن والحسين . فقلت : ما اعرفك بالمقالة والانساب ! قال : وما خفي عليك اكثر . قلت أتحفظ القرآن . قال نعم . قلت : فاقرأ شيئًا . فقال : «بسم الله الرحمن الرحيم . واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك . واكيد كيدا . فمهّل الكافرين . أمهلهم رويـدا» فصفعته صفعة اسقطت عمامته وبقي التحنّك في عنقه . فصاح بالناس قلنسوتي . وقال احملوه الى المحتسب . فاوصلوني الى رجل حاسر حافٍ قد لبس درّاعة بلا سراويل . فقال : ما صنع ؟ قالوا : صفع إمام الجامع . قال : يا مسكين ، اهلكت نفسك . قلت : هذا حكم الله فصبرًا عليه . قال : انا احب اليك . سَل عينيك

---

١) آثار البلاد للقزويني ، طبعة اروبة ، ٢ : ١٢٤

٢) كتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي . باريس ٣٥٤٣ ، ص ١٢٥

وقطع يديك او تدفع نصف درهم. قال: فرفعت يدي وصفعت المحتسب صفعة، ثم اخرجت الدرهم من فمي، وقلت: يا سيدي، خذ نصف درهم لك ونصف درهم لإمامك.»[1]

• قال حُنين (بن بلّوع المغني الحيري): خرجت الى حمص التمس الكسب بها، وارتاد من استفيد منه شيئاً. فسألت عن الفتيان واين يجتمعون، فقيل لي عليك بالحمامات فانهم يجتمعون بها اذا اصبحوا. فجئت الى احدها فدخلته. فاذا فيه جماعة منهم. فأنِست بهم وانبسطت واخبرتهم اني غريب. ثم خرجوا وخرجت معهم. فذهبوا بي الى منزل احدهم. فلما قعدنا أُتينا بالطعام فاكلنا. واتينا بالشراب فشربنا. فقلت لهم: هل لكم مغنٍّ يغنيكم؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قلت: انا لكم به. هاتوا عودًا. فأُتيت به. فابتدأت في هُنَيّات ابي عباد معبد. فكأنّا غنيت للحيطان. لا فكِهوا لغنائي ولا سُرّوا به. فقلت: ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه. فاخذت في غناء الغريض فاذا هو عندهم كلا شيء. وغنيت خفائف ابن سريج واهزاج حكم. والاغاني التي لي. واجتهدت في ان يفهموا فلم يتحرّك من القوم احد. وجعلوا يقولون: ليت ابا منبه قد جاءنا. فقلت في نفسي ارى اني سأفتضح اليوم بابي منبه فضيحة لم يفتضح احد قط مثلها. فبينا نحن كذلك اذ جاء ابو منبه. واذا هو شيخ عليه خفّان احمران كأنه جمّال. فوثبوا جميعاً اليه وسلموا عليه وقالوا: يا ابا منبه، ابطأت علينا. وقدموا له الطعام وسقوه اقداحاً. وخنست انا حتى صرت كلا شيء. خوفاً منه. فاخذ العود ثم اندفع يغني:

طرب البحر فاعبري يا سفينة لا تشقّي على رجال المدينة

فاقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون. ثم اخذ في نحو هذا من الغناء. فقلت في نفسي انتم هنا. لئن اصبحت سالمًا لا امسيت في هذه البلدة. فلما اصبحت شددت رحلي على ناقتي. واحتقبت ركوة من شراب ورحلت متوجهًا الى الحيرة، وقلت:

ليت شعري! متى تخبّ بي النا قة بين السدير والصنّين
محتقبًا ركوة، وخبز رُقاق، وبقولًا، وقطعة من نون

1) الثاني من شرح المقامات الحريرية للشريشي، ص ٢٤٤–٢٤٥

لست ابني زادًا سواها من الشا م ، وحسبي علالة تكفيني
فاذا أُبت سالمًا قلت : سحقًا وبعادًا لمشر . فارقوني (١

خرج بعض حذّاق المكدّين من بغداد الى حمص ومعه امرأته . فلما حصل بها ، قال لها: ان هذا بلد حماقة ومال . اني اريـد ان اعمل مُنمِساً — وهذه كلمة لهم اذا ارادوا ان يعملوا حيلة كبيرة — فساعديني عليها بالصبر . قالت: شأنك . فقال: كوني بموضعك ولا تجتازي بي البتة . واذا كان كل يوم خذي لي ثلثي رطل زبيباً . وثلثي رطل لوزًا نيًّا . فاعجنيه واجعليه وقت الهاجرة على آجرّة نظيفة لاعرفها في الميضأة الفلانية — وكانت قريبة من الجامع — ولا تريديني على هذا شيئاً . ولا تمرّي بناحيتي . قالت افعل . قال : وجاء هو واخرج جبّة صوف كانت معه فلبسها . وسراويل صوف ، ومِئزرًا جعله على رأسه . واعتمد اسطوانة في الجامع بحيث يجتاز عليها اكثر الناس يصلي نهاره اجمع ولا يستريح الا في الاوقات المحظورة فيها الصلاة . واذا جلس للراحة سبّح ولم ينطق بلفظة . ولم يشعَر به اياماً . ثم تُنبّه على مكانه . ووعي وعُرف خبره ووضعت العيون عليه فاذا هو لا يقطع الصلاة ولا يذوق الطعام . فتحيّر اهل البلد من امره . وكان لا يخرج من الجامع الا في الهاجرة في كل يوم دفعة حتى يمضي الى تلك الميضأة فيبول ويعمد الى تلك الآجرّة وقد عرفها وعليها ذلك المعجون وقد صار مستحيلاً وصورته صورة الغائط الناشف المستحيل . فمن يدخل ويخرج لا يشكّ انه غائط . فيأكله ويقيم اوده ويرجع . فاذا تمسّح لصلاة العتمة وفي الليل . يشرب كفايته من الماء[٢] . واهل حمص يظنّون انه

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٢ : ١٣٢

٢) هذه الحيلة هي حيلة الحلّاج المشهور حين اراد ان يطيل الصيام شهرًا ، دون ان يأكل شيئًا . وكان له غلام يقال له النصري كان يصبر عن الاكل خمسة عشر يومًا ، وقد وصف طريقته لصهره حين حُبس في جملة الحلاجية فقال له: «خذ رطلًا من الزبيب الخراساني . ورطلًا من اللوز ودُقّهما واجعلهما مثل الكُسْب واصلحهما صفيحة رقيقة . فاذا جئتني غداً فاجعلها بين ورقتين من دفتر . وخذ الدفتر في يدك مكشوفًا مطويًا في يدك طيًّا مدوّرًا من غير كسر ليخفى ما فيه . فاذا خلوت بي ولم ترَ من يلاحظني . فاجعل ذلك تحت ذيلي وانصرف فاني آكله سرًّا واشرب الماء اذا تمضمضت للطهر . فيكفيني خمسة عشر يومًا اخرى . »
(نشوار المحاضرة للتنوخي ١ : ٨٠–٨١)

لا يذوق الماء ولا الطعام وانه طاوٍ تلك المدة . فعظم شأنــه ومحله عندهم . وقصدوه وكلموه فلم يجب . واحاطوا به فلم يلتفت . واجتهدوا في خطابه فلزم الصمت والعمل . فزاد محله عندهم حتى انهم كانوا اذا خرج للطهور جاؤوا الى موضعه فيتمسحون به . ويأخذون التراب من موضع مشيه . ويحملون اليه المرضى فيمسح يده عليهم .

فلما رأى ان منزلته قد بلغت الى ذلك وكان قد مضى على هذا الفعل سنة . اجتمع في الميضأة مع امرأته وقال اذا كان يوم الجمعة كما تصلي الناس فتعالي فاعلقي بي والطمي وجهي وقولي لي : يا عدو الله . يا فاسق . قتلت ابني ببغداد وهربت الى هنا . وجئت تتعبد وعبادتك مضروب بها وجهك ? ولا تفارقيني واظهري انك تريدين قتلي بابنك . فان الناس يجتمعون عليك . وامنعهم انا من اذيتك واعترف باني قتلته وتبت وجئت الى هنا للعبادة والتوبة والندم على ما كان مني . فاطلبي تؤدي باقراري وحملي الى السلطان . فسيعرضون عليك الدية ولا تقبليها او يبذلوا عشر ديات . او ما استوى لك بحسب ما ترين من زيادتهم وحرصهم . فاذا تناهت عطيتهم في افتدائي الى حدٍّ يقع لك انهم لا يزيدون بعده شيئاً . فاقبلي الفداء منهم واجمعي المال وخذيه واخرجي من يومك من البلد الى طريق بغداد فاني سأهرب واتبعك .

فلما كان من الغد جاءت المرأة فلما رأته فعلت به ما قال لها ولطمته وقالت المقالة التي علّمها . فقام اهل البلد ليقتلوها . وقالوا : ياعدوة الله هذا من الابدال . هذا من قِوام العالم . هذا قطب الوقت . هذا صاحب الزمان . هذا هذا . فاومأ اليهم ان اصبروا ولا تنالوها بسوء . فصبروا وأوجز صلاتــه ثم تمرّغ في الارض طويلاً ثم قــال للناس : هل سمعتم لي كلمة منذ أقمت فيكم ? فاستبشروا لسماع كلامه . وارتفعت صيحة عظيمة وقالوا لا . قال : فاني انما اقمت عندكم تائباً مما ذكرته وقد كنت رجلاً في زيغ وخسارة فقتلت ابن هذه المرأة وتبت وجئت الى ههنا للعبادة . وكنت محدّثاً نفسي بالرجوع اليها وطلبها لتُقيدني خوفاً من ان لا تكون توبتي قد صحت . وما زلت ادعو الله تعالى ان يتقبل توبتي ويمكنها مني . الى ان أُجيبت دعوتي . وقبل الله توبتي لما جمعني واياها ومكنها

من قَوَدي . فدعوها تقتلني . واستودعكم الله تعالى . قال: فارتفعت الصيحة والبكا . وقال له هذا: يا عبد الله ادعُ لي . وقال هذا : ادعُ لي . واقبلت المرأة بين يديه وهو مارّ الى والي البلد . وهو يمشي على تأنٍ ورفق ليخرج من الجامع الى دار الامير فيقتله بابنها . فقال الشيخ: يا قوم لِمَ ضللتم عن مداواة هذه المحنة وحراسة بلدكم بهذا العبد الصالح ؟ فارفقوا بالمرأة وسلوها قبول الدية . ونجعلها من اموالنا . فطافوا بها وسألوها فقالت: لا افعل . فقالوا: خذي ديتَين. فقالت: شعرة من ابني بالف دية . فما زالوا حتى بلغوا عشر ديات . فقالت: اجمعوا المال فاذا رأيتـه . ان طاب قلبي بقبوله والعفو عن الدم فعلت . والّا قتلت القاتل . فقالوا نعم . فقال الرجل: قومي عافاك الله ورديني الى موضعي من الجامع . قالت: لا افعل . قال: فداك اليك . فما زالوا يجمعون الى ان جمعوا مائة الف درهم . وقالوا : خذيها . قالت: لا اريد الا قتل قاتل ابني . آثر في نفسي . فاقبل الناس يرمون ثيابهم وارديتهم وخواتمهم . والنساء بحليهنّ . والرجال كل يرمي بشيء من متاعه . ومن لم يتحمل من ذلك الفدا. كان في امر عظيم وكأنه قد خرج من الدنيا . فاخذته وابرأته من الدم وانصرفت . فاقام الرجل في الجامع اياماً يسيرة حتى علم انها قد بعدت . ثم هرب في بعض الليالي . وطُلب من غد فلم يوجد ولا عُرف له خبر حتى انكشف لهم انها حيلة عملها بعد مدة طويلة .»[١]

وهنالك حكايات اخرى عديدة اشد حماقة مما تقدم لا يزال الى اليوم بعض الشيوخ والعجائز يتناقلونها اباً عن جد على سبيل التسلية والفكاهة في نسبة البله والتغفل لعامة حمص . وقد سمعنا عنها بدمشق في زمن الصبوة نوادر في غاية السخف والغرابة كانت تستعين بها الأمهات على تنويم الاطفال في ليالي الشتاء الطوال .

١) نشوار المحاضرة ١ : ٢٧٧-٢٨٠

خطايا الروم الملكيين بحلب

في القرن السابع عشر

من شروط الاعتراف عند النصارى ما يسمونه « فحص الضمير » لتذكّر الآثام والذنوب. ومن خشي الغفلة والنسيان استعان بمراجعة بعض كتب الصلاة، وفيها صفحات عُدّدت فيها الوصايا الدينية وما ينجم عن مخالفتها من ضروب المعاصي. وهي ما تلقّنه الشرقيّون عن الافرنج، بعد دخول المرسَلين اللاتين حلب في الثلث الاول من القرن السابع عشر. ولم نقف على شيء منها في كل ما مرّ بايدينا من الاوراق والمخطوطات في الاديار والبيع والخزائن العامة، سوى في مجموع واحد في خزانة باريس رقم ٣٠٤١، تتقدمه فصول مقتبسة من كتاب في الطب جاء في آخر الورقة السابعة والثلاثين منه هذه الخاتمة:

« تم هذا الكتاب المبارك يوم الاربعا سادس شهر تشرين الثاني سنة سبعة آلاف ومايتين وثمانية لكون العالم (١٦٩٧ م) وهو برسم الشماس جرجس بن سفرشاه الدربي. الله يجعله عليه مبارك امين امين امين »

وفي المخطوط خرم باوله. وتبلغ اوراقه ١١٨ ورقة. كُتب في الاولى منها: « قد دخل في ملك الراجي عفو رب العباد الفقير انطون ابن جبرايل لباد سنة ١٧٥٦ » وهو من اهل حلب.

وتلي الورقة السابعة والثلاثين بعض قصص وحكايات، ومدائح وصلوات نصرانية، وتعليقات شتى. لا تخلو من بعض الفائدة في تاريخ الروم الملكيين. لاشتمالها على اسماء من نشأ في حلب او مرّ بها من الرعاة والرعية. وردت في تضاعيف الادعية التي اعتاد الروم الإجهار بها في مختلف الصلوات لكل ملوكهم ورؤسائهم والمحسنين اليهم و« سائر خدام كنيسة المسيح ». وبعد ان نقل الكاتب الصورة المصطلح عليها عندهم الحقها بتعداد من تعاقب على كنيسة حلب منذ القرن السادس عشر وقال:

« اذكر يا رب رؤساء الكهنة والكهنة والشمامسة الذين ارتسموا على هذه الكنيسة

المقدسة وخدموها الى آخر حياتهم . وهم هولاي : الاسقف غريغوريوس . الاسقف ماكاريوس . الاسقف سلوون . البطريرك افثيميوس . البطريرك ماكاريوس . المطران مطروفانس» (ص ٩٨)

ويلي هذه التذكارات اسماء كهنة ورهبان وعلمانيين من رجال ونساء استغرقت نحو ست صفحات . بينها اسماء المطارنة ملاشيا ، وغبريل ، وارميا ، واثاناسيوس ، وسلفستروس ، وجراسيموس ، وملاتيوس . والبطريركين ناوفيطس وكيرلس . وهما اللذان تنازعا الرئاسة بعد وفاة مكاريوس الزعيم جد كيرلس . والكتاب مخطوط في زمن هذا الاخير . ومن دواعي الاسف ان اسماء الرهبان والكهنة والشمامسة وغالب الاعيان مسرودة دون القاب ، فلا تستمد منها فائدة تاريخية ولولا ذلك لكان لكنيسة حلب منها مصدر من اوثق المصادر .

والاسقف غريغوريوس الذي بُدئ به في الذكر هو اول من يُعرف من اساقفة حلب بعد القرن العاشر . وهو ابن فُضيل . واصل اسرته من كفربهم في جوار حماة ، تولى الكرسي سنة ١٥٤٠ ، وتوفي في حماة سنة ١٥٨٢ ، فهو اطول الاساقفة ولاية . وقام من بعده مكاريوس بن خلفٍ الصاجاتي ، ومات سنة ١٥٩٩ واختلف الحلبيون من بعده ، فانتدب البطريرك يواكيم زيادة للنيابة سلوون اسقف مرمنيثا . وبعد سبع سنوات تنحى للمطران ملاتيوس كرمة الحموي المنتخب سنة ١٦١٢ وهو نفس البطريرك افثيميوس . وخلفه ملاتيوس الزعيم سنة ١٦٣٤ على كرسي حلب . وسنة ١٦٤٧ على الكرسي الانطاكي . وهو المشهور باسم البطريرك مكاريوس الحلبي . وقلّد المطرانية بعده مطروفانس ابن القسيس بشارة الحلبي المتوفى سنة ١٦٥٩

وفي كل هذه الشروح التي اوردناها شاهد قاطع بان المخطوط حلبي القلم والصبغة . وان ما جاء فيه من ذكر الخطايا والمحرمات في الاوراق ٧٢ الى ٧٨ هي صدى ما كان يرتكب منها بحلب في القرن السابع عشر . ولا يخفى ما في سياقتها من وصف اخلاق القوم : وعاداتهم ، وازيائهم ، وشهواتهم ، واساليبهم في المعيشة والتربية . وما تسلّل اليهم بطريق العدوى والتقليد من بدَع الخوارج عن الدين .

ولا شك ان الكاتب هو احد كهنة حلب . سمى هذه الخطايا التي عدّدها

« حرامات » وبدأ منها بالسكر وشرب العرق وهو الوبآء الذي فتك دائماً بالشاميين وخالط منهم اللحم والدم . وقد شهد البطريرك اثناسيوس الدباس ، وكان مقيماً بحلب وتوفي فيها سنة ١٧٢٤ ، انهم كانوا لا يفارقون آنية العرق والخمر حتى في الكنيسة ولذلك اوصى في منشور له « ان لا يدخل الكنيسة رجل او امرأة حاملين في عبّهم الخمر والعرق لئلا يجعلوا بيت الله حانوتاً لاسباب الشرور ». (١

وكان قوم لا يكفّون عن الشرب ولو في جوار القبر المقدس نفسه . ولذلك قال الكاتب « الذي يحج للقدس الشريف ويشرب هناك عرق ونبيذ حرام » وقد حرّم بيعهما مطلقاً . ولكنه لم ينهَ عن شربهما الا في يومي الاربعا والجمعة فقط . وسكت عن سائر ايام الاسبوع . وهو غريب . وكان لهذين اليومين عندهم ، وهما من ايام الصيام حرمة شديدة . ولذلك منع فيهما ايضاً تناول الطعام قبل صلاة التاسعة . واكل السمك وشرب النبيذ على مدار السنة . والدنوّ من الازواج وضرب الطبول .

وبعد العرق حرّم « اكل الافيون والكلس » وهذه اول مرة طرق سمعنا ذكر الكلس بين المخدرات . ويظهر ان اول من احدث اكل الافيون في الشام هو ابو السعود الدمشقي المعروف بابن الكاتب . قال المحبي : « اداه ولهه وغرامه الى قتل نفسه . قيل انه اكل سبعة دراهم من الافيون وعولج فلم يفد علاجه . ومات من ليلته . وهو الذي احدث هذه الفعلة بدمشق وكان الناس عنها غافلين . وبعد ذلك تبعه في فعلها اناس . . . وبالجملة فقد فتح بيدعها باباً شنيعاً . وارتكب امراً فظيعاً . وكانت وفاته في رمضان سنة ست وخمسين والف (١٦٤٦ م) » (٢ . واما الكلس فبعد لأي وتنقيب طويل عثرنا على ما دلّنا ان هذه الشناعة كانت وتتنذ معروفة عند بعض مسلمي حلب . وعنهم اخذها ، دون ريب ، بعض جهّال النصارى في جملة ما قلّدوهم فيه من الشهوات والقبائح وقد ورد ذكرها في ترجمة الشيخ احمد القاري المتوفى سنة ١٠٤١ للهجرة (١٦٣١ م) وهو ممن ادرك الشيخ المجذوب ابا بكر الحلبي واقام عند ضريحه . قال المحبي :

« وقد كان الزوار لمرقده الشريف لا يحصى عددهم . والصدقات تتوارد عليهم وهم لا يعلمون مقدارها . ولا يستطيعون ان يشتروا ماعوناً يطبخون فيه لغلبة الجذب عليهم . وكلهم

---

١) مجموع صغير في مكتبة دير الشير (مار جاورجيوس) للرهبان الحلبيين

٢) خلاصة الاثر ١ : ١١٨

محلّقو اللحى . يلبسون المرقّعات ويفترشون جلود النمر . ويأ كلون الحشيش والكلس . وبعض المجاذيب منهم يشرب الخمر والعرق . »(١

ومن هذا المثال يتضح انقياد فريق من النصارى الحلبيين للتشبه بجيرانهم من المسلمين فيما انفردوا به من الخصائص والعادات والاهواء . وربما سرت هذه العدوى الى افراد من رجال الكنيسة ، فكانوا يتبعون احياناً امثلتهم وطرائقهم دون اقل استرابة او تحرز . وقد وقفنا في خزائن الثاثيكان على « كنّاش » عجيب بقلم غريغوريوس بن فضيل السابق الذكر « خادم كرسي حلب والقصير والسويدية » جمع فيه بين الجد والهزل . وضمّنه كل غريبة ونادرة . وخلط بين سِيَر القديسين والخرافات والصلوات . وكتابة الحروز والطلسمات . واستقراء الادوية والصفات كأنه احد شيوخ الطُرُق . وكان ، لسلامة صدره وغلبة الغفلة عليه ، لا يتحرج من الحلف باسم الله ، وتلاوة الادعية لاستخراج التابع والتابعة من الجنّ بعد ان « يكتبها بمسك وزعفران . ويكون البخور عاقداً » . فما الظن بعد ذلك بمن كان في طاعتهِ من الرجال والنساء !

وقد عُرف اهل حلب بالميل الى الطرب وسماع الغناء والرقص والزفن . ولذلك كثر في الكتاب تحريم المغاني والطبول والزمور والضرب « بالطنبور والفيق . والماصول . والشبابة . والرباب والدفوف وجميع آلات المغاني » . ولا شك ان سبب هذا التحريم كان ما يبعث عليه اللهو والغناء من السرور والخفة وطيب النفس ، والاختلاط ، والافراط في الشرب ، والخروج عن الوقار ، وكثرة الانفاق على الافراح والاعراس . وهو ما صرحت به غير مرة مناشير البطاركة في ذلك العهد وتابعهم عليه الكاتب بقوله « الكائنة على الاعراس والخطبات حرام . الكلفة على الولايم والمزايم حرام . العبور للعرس الذي فيه طبول وزمور ومغاني حرام » وقد ضيقوا على العرائس كل التضييق . وبعد ان حددوا قِيَم الهدايا لهنّ ، قال البطريرك يواكيم جمعة « لا تنتش . ولا حنة . ولا ماشطة ولا مغنية مسلمة »(٢ . وزاد البطريرك افتيموس كرمة « لا يعملوا غسل للعروس ولا اكل ولا شرب ولا سكر ولا لعب . ولا ينقشوا العروس

---

١) خلاصة الاثر ١ : ٢٦٠

٢) منشوره في كتاب الفنداق رقم ١٠٩ ، في مكتبة دير القبر المقدس

ولا يحنّوها. ولا يزخرفوا وجهاً بالماشطة ولا يزيّنوها (maquillage) ومثله قول الكتاب: « اكاليل العروس وهي منقّشة بحنّاية حرام . اكليل العروس وهي مزينة بالماشطة. وتذهّب شعرها حرام » وفي هذه العبارة الاخيرة شاهد صريح بانهم كانوا يصفّرون الشعر بماء الذهب . وهو غريب . وقد حرموا كلهم الصلاة على العروس خارجاً عن الكنيسة خلافاً لتسامحهم اليوم.

وعلى ذكر الاعراس والزواج كانوا يرون وقتئذٍ ان « الذي يتزوج امرأة ثانية اذا تقرب قبل السنتين حرام. الذي يتزوّج امرأة ثالثة اذا تقرب قبل الخمسة سنين حرام» ولا ندري من اي شرع او لاهوت استمدوا هذا القضاء الغريب. ونظيره دعواهم ان الدنو من النفساء: «اذا جابت صبي قبل الاربعين يوم حرام. واذا جابت بنت قبل الثمانين حرام » وهذا لا محالة من احكام قراقوش.

ومما تشددوا فيه ايضاً الالعاب . فعدّوا من الخطايا « اللعب بالزند (النرد) . والصطرنج. والمنقلة. والورق. والقمار. والكلة. والطاب. ودكّة » ولا ريب انهم حرّموها لكثرة المقامرة بها.

ومن المآكل التي نهوا عنها « اكل لحم الضحية . والخنيق الذي افترسه وحش . ولحم الخنزير المقتول خنيق. واكل السمك يوم سبت العازر. واكل السمك يوم عيد البشارة اذا اتفق في جمعة الآلام. واكل الزلاطين وباقي الزهومات في صيام الكبير». ويدخل فيها ايضاً « الفطور قبل القداس يوم الاحد والاعياد السيدية . وشرب الماء والصلاة قايمة ». وكانت ايام الآحاد والاعياد عندهم في غاية من التبجيل والتقديس ، ولذلك حرموا فيها ايضا دخول الحمام.

وكذلك كانوا يعظمون النذور ويرون « ان تأخيرها حرام. وان الذي ينذر ان يعمد ولده في كنيسة غير كنيسة بلده حرام. والذي ينذر ان يحلق راس ابنه في دير او مزار حرام. والذي ينذر ان يصوم لمار ميخايل او لبعض الملائكة حرام». وبالاجمال « ان النذر بغير كنيسة الارثوذكسيين حرام »

ويظهر ان تزييف النقود وقرضها كان وقتئذٍ جارياً بجاب . ولذلك حرموا « طبخ الذهب والفضة. وحفر سكة الزغل. وقص الدراهم. ومشترى القصاصة. ومشترى الدرهم الزغل وتقبيضه. وتنفيذ درهم الزغل »

ومن انواع السرقة التي نهوا عنها خصوصاً « سرقة علف البهائم . ونبش القبور . وتشليح الموتى اكفانهم » ومنعوا «الصدقة من السرقة » . وهو كقول ابي عبد الله الضرير الابيوردي:

كسارقة الرمان من كرم جارها ، تعود به المرضى ، وتطمع في الفضل

ومع ان الكنيسة كانت كثيراً ما تضطرّ للاستدانة برهن آنيتها لدفع المغارم والمصادرات والمظالم قالوا «اذا تدين نصراني من نصراني حرام» ولعل ذلك لفحش الربا وتتنذ، وهم قد نهوا عنه مطلقاً.

ومن المحارم عندهم «السحر والتنجيم . وفتح الفال . وضرب الرمل . وتصديق المنامات وتفسير الاحلام . والوقوف على المزعبرين . والوقوف على خيال الابزار» . وهذا الخيال هو ما يعرف عند العامة باسم « قراقوز » . وكان يقال له قديماً خيال الظلّ . ولم نرَ لاحد كلاماً عليه . فلا بأس ان نتوسع هنا في تعريفه قليلاً . وهو نوعان : خيال جعفر الراقص باسم من اخترعه ، وخيال الازار . وفي شفاء الغليل للخفاجي خيال الازاد بالدال (ص ٥٠) وهو غلط فليُحرَّر . واول ذكر ورد له ، فيما وقفنا عليه ، في القرن الثاني من العصر العباسي . وكانوا يمثلون فيه صور الرجال والنساء على سبيل العبث واللهو او الهجو . ولما تهدد دعبل الشاعر المشهور عبادة المخنَّث بالهجاء قال له عبادة : « والله لئن فعلتَ لاخرجنَّ امك في الخيال »[1] . واكثر ما كان يتخذ في المواسم والاعياد وايام المهرجان . «وكان الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفى سنة ٦٣٠ (١٢٣٢/٣م) يبالغ في الاحتفال بمولد النبي ويتقدم بنصب قباب من الخشب . كل قبة اربع او خمس طبقات . . . وفي كل قبة جوق من المغاني . وجوق من ارباب الخيال ومن ارباب الملاهي . . . فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على كل قبة قبة الى آخرها ويسمع غناءهم . ويتفرج على خيالاتهم . وما يفعلون في القباب »[2] .

ومعلوم ما يتطرق عادة الى ملاهي العامة من قلة التصوّن ، والتدرج في اطراح الحشمة والحياء . والاسترسال في فنون المجون . فما ابطأ الخيال ان اصبح

١) كتاب الديارات للشابشتي ، نسخة برلين ، ص ٨١

٢) الاول من وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٥٥٢-٥٥٣

مسرحاً للخلاعة والخيال. ولذلك سبق المسلمون النصارى في تحريمه احياناً. وفي سنة ٨٥٥ (١٤٥١ م) في ذي القعدة طلب الملك الظاهر جقمق اصحاب خيال الظلّ «وحرق جميع ما معهم من الاشخاص المصنوعة للخيال. وكتب عليهم قسائم بعدم عودهم الى فعله.»[1]

وكان يقال لمن يتعاطى الخيال «خياليّ» ومن بديع التورية فيه قول الشاب الظريف التلمساني يتغزل في مليح خياليّ:

خياليٌّ اخاف الهجر منه ولست اراه يرغب في وصالي
وكنتُ عهدتني قدماً شجاعاً فمالي صرت افزع من خيالي.[2]

ومن المحرّمات التي نبّه عليها «كتبة الحروز» وقد سبق ان مطران حلب غريغوريوس بن فضيل كان لا يتأثم منها. ويظهر ان عادتها لم تزُل من بعده، وبقيت الى ايام البطريرك اغناتيوس عطيّة فاشية بين الكهنة والعوام. وقد اشار اليها المجمع الملتئم في دير السيدة في الراس بجوار بعلبك بتاريخ اول حزيران (يونيو) سنة ١٦٢٨ حساباً شرقياً. وهذا نص كلامه عليها بلفظه:

«كان لهم عادة ردية ان الكهنة يكتبوا الحروز. والعوام يعلقوا الحروز والتعاويذ على روس اولادهم. ويقروا صلاة السيدة ويعلقوها على اولادهم وكثير من المسيحيين. ويصدقوا اقوال المنجمين والرقايين. وربما انهم رقوا رقوات مثل الامم. ويفتحوا الفال. ويمضوا الى عند السحرة. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك لان الكتاب الالهي يقول لا يكون فيكم من يفتح الفال ولا من يقول بالرقى. ولا من يكتب الحروز. ومن فعل ذلك ان كان كاهن يقطع من كهنوته. وان كان علماني يفرز من بيعة الله فمن فعل بخلاف ناموس الله جماعة السينودس تحرمه»

ومنعوا ايضاً «الحزن على الميت. وتكفين الميت بالحرير والولولة خاف الميت. ولبس الازرق والاسود على الميت». وجاء مثل ذلك في منشور البطريرك اثناسيوس الدباس المقيم بحلب الآنف الذكر قال: «لا تلبس النساء السواد على امواتهن. ولا يتغطين بعلايا سود وملوّنات. ولا يولولوا كالوثنيات الذين ليس لهم رجاء خلاص»

ومن الغريب انهم لم يشيروا الى عادة النساء في زخرفة الوجه وتطريته بانواع الطلاء. واقتصروا على تحريم ذلك على العرائس كما تقدم. ولكنهم خصوا

---

١) حوادث الدهر لابن تغري بردي، طبعة ليدن، ١: ١١٧؛ والتبر المسبوك للسخاوي، ص ٢٥٢

٢) الخامس من المنهل الصافي لابن تغري بردي؛ باريس ٢٠٧٢، ص ١٣٢

بالذكر «تقطيع حواجب المرأة بالملقط» وقالوا انه حرام. وهو الوبآ. الذي هبت اليوم ريحه من جديد في الغرب، واخذ بالانتشار في الشرق عائدًا اليه، بعد ان بدأ منه. لان نساء الجاهلية كنَّ يعرفنه بدليل ورود ما يعبر عنه في اللغة. يقال نمّص الشعر تنميصاً وتنماصاً اذا نتفه. ونمّصته الماشطة بالمنماص. قال الراجز:

يا ليتها قد لبست وصواصا ونمّصت حاجبها تنماصا

وفي الحديث: «لُعنت النامصة والمتنمصة»[1]. ويشبه ذلك «الدقاق بالابرة في جسم الانسان» وهو الوشم. وفي الحديث عن علقمة عن عبدالله «لعن الله الواشمات والمستوشمات»[2].

ومن اعجب ما عدّه من الذنوب «قص اللحية» وهو مما يدل على ان النصارى كانوا في القرن السابع عشر يرخون لحاهم عملاً بالحديث «أحفوا الشوارب واعفوا اللحى». وللحى في الاسلام تاريخ مُمتِع. لعلنا نتفرغ يوماً لكتابته.

وآخر ما ختم به هذه المحرمات «شرب الدخان» ولا شك انه امتُثِل فيه امر السلطان مراد فاتح بغداد (١٦٢٢-١٦٣٩ م) قال المحبي:

«ومن الحوادث في ايام سلطنته تبطيله القهوات في جميع ممالكه. والمنع عن شرب التبغ. بالتأكيدات البالغة. وله في ذلك التحريض الذي ما وقع في عهد ملك ابدًا»[3]

ويظهر ان هذا المنع ظلّ نافذًا الى ما بعد وفاته. وكان من اراد التدخين يحتاج الى الاستتار. قال المحبي:

«وحكى لي والدي قال اخبرني المولى العلامة الشهاب الخفاجي وانا بمصر في سنة ستين والف (١٦٥٠ م) انه كان في يوم من الايام في مجلس العلامة الحميدي نقيب الاشراف الرفيع المقام مع جماعة من الفضلاء. وزمرة من الاماجد النبلاء. فاحتجب الشهاب عن المجلس لاجل الدخان. وكان المنع عنه قد حصل من حضرة السلطان. ولما عاد الى المجلس انشد هذين البيتين. وهما نظم وقتها من غير مين:

اذا شُرب الدخان فلا تَلُمنا وجُد بالعفو يا روض الاماني
تريد مهذبًا من غير ذنب وهل عود يفوح بلا دخان

---

١) اساس البلاغة للزمخشري، طبعة الدار، ٢: ٤٧٨
٢) صحيح البخاري ٧: ٥٨
٣) خلاصة الاثر ٤: ٣٣٩

قال فاجاب النقيب في الحال على سبيل الارتجال :

اذا شرب الدخان فلا تلمني على لومي لابنآء الزمان
اريد مهذبًا من غير ذنب كريح المسك فاح بلا دخان .»(١

وبقيت هنالك محرّمات اخرى لم نشر اليها ولا طائل فيها وهي مما احلّه الله. ولذلك كتب احدهم ما يأتي على سبيل الانكار والهزء والطّنز :

« الذي بيفطر ويتغدا ويتمشا حرام . الذي يشرب ما اذا عاش حرام . شرب القهوة حرام . واذا نعس الانسان ونام حرام . اذا نام بلا بابوجه حرام . واذا ساله جواب ورده حرام »

ومما تقدم تتضح فائدة درس مثل هذه المخطوطات وما فيها من الذيول والتعليقات ، وهي شاهدة بكثرة ما اخذه النصارى عن الاسلام بطريق المعاشرة والجوار . وحبّذا لو تفرغ احد الادباء لتتبع نظائر هذه الآثار في الاخلاق والآداب منذ سقوط دولة الصليبيين الى قدوم المرسلين اللاتين في القرن السابع عشر .

---

١) خلاصة الاثر ٤: ١٧٦

أيام السبوت بدمشق

في عهد العباسيين

كانت ايام الاسبوع قديماً مقسمة عند اقوام على اقسام من اللذة والاستمتاع بطيب العيش والتصرّف في اطوار الحياة. فكان يوم السبت منها مخصصاً للصيد والشراب والخروج الى البساتين والمتنزهات. ولذلك قال احد من نظم خصائص ايام الاسبوع :

لنعم اليوم يوم السبت حقاً لصيد ، ان اردت ، بلا امتراء (١

ويظهر ان اختيار هذا اليوم للقصف والمنادمة على الشراب ، والبزوز الى الحدائق والرياض ، كان شاملاً في غير دمشق اكثر مدائن الشرق . ولعل عادة الاصطباح فيه مأخوذة عن الفرس. فقد حكى المسعودي انه كان لهم يوم بهران او يوم رام ينقطعون فيه لمعاقرة المدام. وفيه يقول الشاعر :

باكر بنا لذّة المدام في يوم سبت ، ويوم رام
شريطتي فيه ان تراني ، وقت الضحى ، فاتر الكلام (٢

ولذلك كان اهل الطرب والترف وعشاق الصهباء في بغداد يعدّون يوم السبت وقفاً باجمعه على الشرب والسكر لا يجوز في شرع الفتوة ان تُهمل سنّته . وروي عن عبدالله بن العباس ، حفيد الربيع ، وزير الرشيد والامين ، أنه دخل على علي بن عيسى بن جعفر الهاشمي في يوم النصف من شعبان ، وهو يوم سبت ، وقد عزم على الصوم . فاخذ بعضادتي باب مجلسه ثم قال له متعجباً : يا أميري :

تصبح في السبت غير نشوان وقد مضى عنك نصف شعبان ؟

وهو القائل في احد ابياته :

يوم سبت ، فصرّفا لي المداما واسقياني لعلني ان انام (٣

وقد سبقه ابو نواس الى ذكر يوم السبت في خمرياته فقال في احداها :

جاءتك من بيت خمّار بطينتها صفراء مثل شعاع الشمس ترتقد . . .

---

١) ياقوت : ارشاد الاريب ٣ : ٨٩

٢) مروج الذهب ، هامش نفح الطيب ، ٢ : ٦٦

٣) الاغاني ؛ طبعة بولاق ، ١٧ : ١٢١ و١٢٤

فلم تزل في صباح السبت تأخذها والليل اجمعه ، حتى بدا الاحد (١

وللبحتري ابيات كتبها الى المبرّد ، وقال له فيها :

يوم سبت وعندنا ما كفى السحرَ طعام ، والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيّا ح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك ممن كنت تهوى وان جفاك الحبيب (٢

ويظهر ان هذه العادة عمت في زمن القاضي التنوخي سائر طبقات الناس حتى كان يقال : من اصبح في يوم سبت وعنده طباهجة عنبرية ، وبالقرب منه باقلاني (شرآء النقل) ولم يصطبح ، لا صبّحه الله بخير ولا عافية[٣] .

ولما مرّ ابن بطوطة بمدينة زبيد في اليمن حكى ان لاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة . وذلك انهم يخرجون في ايام البسر والرطب في كل سبت الى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة احد من اهلها ولا من الغرباء . ويخرج اهل الطرب واهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات . وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل .[٤]

ويظهر ان عادة تكريم يوم السبت كانت فاشية ايضاً في بعض انحاء المغرب والاندلس نقلاً ، لا شكّ ، عن اهل الشرق . ومن الابيات التي رواها المقري في معناها قول ابن الزقّاق البلنسي وقد ظرف واجاد :

وحبّب يوم السبت عندي أنني ينادمني فيه الذي انا احببت
ومن اعجب الاشيآء انني مسلم حنيف ، ولكن خير ايامي السبت (٥

ومنها لابي عبدالله بن السراج :

يا من اذا ما سقتني الراح راحته اهدت اليّ بها روحاً وريحانا
من لم يكن في صباح السبت يأخذها فليس عندي بحكم الظرف انسانا (٦

---

١) اخبار ابي نواس لابن منظور ، ص ١٠٥

٢) مجلد من قطب السرور في وصف الانبذة والخمور للرقيق القيرواني . خزانة بريتيش موز يوم Or. 3628, f° 121b

٣) نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي ١ : ٢٠٩

٤) رحلة ابن بطوطة ؟ مطبعة النيل ، ١ : ١٤١

٥) نفح الطيب ، المطبعة الازهرية ، ٢ : ٤١٧

٦) نفح الطيب ، المطبعة الازهرية ، ٢ : ٢٤٤

ومما تقدم يتضح ان يوم السبت كان في الاعم الاغلب « يوم خمر لا يوم امر » فكانوا يستثقلون فيه جداً مطالبة الجباة ومستخرجي الاموال والرسوم السلطانية ، ولذلك قال ابو بكر الخوارزمي في رسالة له « يا وجه المستخرج في يوم السبت. يا إفطار الصائم على الخبز البحت »[١] وضربه مثلًا للثقيل الكريه .

ولكن مهما بلغ شأن يوم السبت في جميع البلدان فلم يكن ، دون شك ، الا دون مبلغه في دمشق واحتفال اهلها به احتفالًا ساوى فيه الغني الصعلوك . والسيد المملوك . فلم يكن يتخلف احد عن تعطيله والإضراب عن كل شغل فيه والانتشار في الميادين والبساتين كما شهد بذلك ابو شامة في ذيل الروضتين.[٢] ونبّه عليه ابن بطوطة في كلامه على اهل دمشق فقال : لا يعملون يوم السبت عملًا . انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضيرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل .[٣]

وقد توسع القزويني في وصف سبوت دمشق وشرح اوفى شرح تعظيم الناس لها ومغالاتهم فيها فقال :

« في هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حَجْر . ولا للوالد على الولد . ولا للزوج على الزوجة . ولا للاستاذ على التلميذ . فاذا كان اول النهار يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه . فيجتمع المملوك باخوانه من المماليك . والصبي باترابه من الصبيان . والزوجة باخواتها من النسآء . والرجل ايضاً باصدقائه . فاما اهل التمييز فيمشون الى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة . واما سائر الناس فالى الميدان الاخضر وهو محوَّط . فرشه اخضر صيفاً وشتاء . وفيه الماء الجاري . والمتعيّشون يوم السبت ينقلون اليه دكاكينهم . وفيها حلَق المشعبذين والمساخرة

١) لم تدرك مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مغزى هذه العبارة فقالت : لعل الحكومة كانت تعطل والاهالي يتعطلون ويتنزهون يوم الجمعة فيفجأهم المستخرج اي المحصل بطلب المال يوم السبت فيستثقلونه كما يستثقل صبيان المكاتب يوم السبت ايضاً (السنة الرابعة ١٩٢٤ ، ص ٣٩)

٢) خزانة باريس ٥٨٥٢ ، ص ٥١

٣) رحلة ابن بطوطة ١ : ٥٠

والمغنين والمصارعين والقصّاصين(١). والناس مشغولون باللعب واللهو الى آخر النهار. ثم يفيضون منها الى الجوامع ويصلون فيها المغرب ويعودون الى اماكنهم. »(٢)

وكان اهل دمشق، حسبما ذكر القزويني ايضاً، اميل الناس الى اللهو واللعب. فلم تكن تكفيهم البطالة والتعييد يوم السبت وحده حتى اضافوا اليه يوم الثلاثا احياناً. ومن اشهر الاماكن التي كانوا يقصدونها بالزيارة هذين اليومين الربوة المشهورة في ايام الصيف. وكانت تجري فيها بعض المنكرات(٣) لكثرة اختلاط الناس فيها واجتماع باعة اللهو من ارباب الحلق والملاعيب والشعوذة وخيال الظلّ واشباههم. ووفرة من يتخطر فيها من الغلمان والجواري والنسآ. في املح زيّ وافتنه. ولذلك لما ولي الامير سيف الدين الحنبلي اقتمر الصاحبي نيابة دمشق سنة ٧٧٨ (١٣٧٦ م). « باشرها شهرين وعشرين يوماً فازال الفساد وانكر المنكر. وامر الناس بفتح الاسواق يوم السبت والثلاثا. »(٤)

وفيما عدا الربوة كان ارباب البطالة والمتنزّهون يزدحمون في الميدان الاخضر، في موضع المرجة اليوم، وفي الشرف الاعلى في جواره. ولتاج الدين محمود الصرخدي يصف الشرف الاعلى يوم سبت:

أشرف على الشرف الاعلى اذا سنحت لك الظبآء بسرحات الميادين
في يوم سبت، ترى الوفرات جائلة على المناكب امثال الثعابين(٥)

يريد بالوفرات ذوائب الغلمان والجواري التي كانت تنوس على ظهورهم مضفورة، ولذلك شبهها بالافاعي. وكان إطلاق الذوائب يومئذٍ شاملاً، فيما خلا النسآ. والغلمان، كثيرين من الرجال حتى بعض الشيوخ منهم. وقد افاض ابن خروف الاندلسي في وصفها في يوم سبت شهده بدمشق فقال:

اذا رحلت عروبة عن حماها، تأوّه كل اوّاه حليم

١) في الاصل المطبوع الفصالين. وهو لا شك تحريف من النساخ.
٢) آثار البلاد واخبار العباد، طبعة اوربة ٢: ١٢٩
٣) وصف ربوة دمشق لابن طولون (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. السنة الثانية ١٩٢٢، ص ١٤٨)
٤) ذيل ابن قاضي شهبة، خزانة باريس ١٥٩٨، ص ٢٤٨
٥) الثالث من عيون التواريخ للكتبي. خزانة باريس ١٥٨٧، ص ٧٧

الى سبت حكى فرعون موسى يجمّع كل سحّار عليم
فتبصر كل أملود قويم يميس بكل ثعبان عظيم
اذا انسابت اراقمها عليهم ، تذكرنا بها ليل السليم
وشاهدنا بها ، في كل حين ، حبالًا ألقيت نحو الكليم (١

وبالاجمال كانت ايام السبوت في الفيحاء من اكبر الاعياد والمواسم تغلق فيها الاسواق ، وتعطل الدواوين والمكاتب وتهجر من اجلها حلقات التدريس في المساجد ، وتزدحم في الساحات والميادين اصناف الخلق باغرب الازياء من الثياب المشهّرة والمنسوجات البلدية الموشّاة الفائقة الصنعة. فكان يرى الناظر من بهجة الوانها واختلاف خطوطها ونقوشها ما يزيد تلك الوجوه والقدود رونقاً ونضارة. وقد اشتهر الدمشقيون في كل وقت بالجمال وحسن التكوين . ولذلك قال شهاب الدين الشاغوري من قصيدة يصف فيها دمشق :

كم يوم سبت بديع في دمشق اتى بالحسن من يوسف الصديق يحكيه (٢

وقد افتتن الغرباء بمثل هذا الحسن والمنظر الانيق ، فقال نور الدين الغرناطي الاندلسي يمدح دمشق :

اما دمشق . فجنّة ينسى بها الوطن الغريب
لله ايام السبو ت بها ومنظرها العجيب !
انظر بعينك ، هل ترى الا حبيباً او حبيب
في موطن غنّى الحما م به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه تختال في فرح وطيب (٣

وقال ابن خروف ايضاً ، بعد ما تقدم من نظمه :

تمتع من دمشق ، ومن هواها فان هوآءها للنفس قوتُ
لها من كل فاكهة ضروبٌ تنسّيها على الناس البخوتُ
وميدان له جمع بديع به تُزهى على الجُمَع السبوتُ (٤

وكان القضاة والشيوخ والادباء يجتمعون ايام السبوت في الرياض والبساتين .

---

١) الثاني من نفح الطيب للمقري ، المطبعة الازهرية ، ص ٣٨٦
٢) الثالث من عيون التواريخ ، ص ٦٠
٣) رحلة ابن بطوطة ١ : ٥٠
٤) الثالث من عيون التواريخ ، ص ٧٩

ويتذاكرون على تغريد الاطيار وخرير الانهار . ومن الجواسق التي عرفت بمثل هذه الاجتماعات السبتية قصر القاضي قطب الدين ابن شيخ السلامية ، ناظر الجيوش الاسلامية بالشام ، المتوفى سنة ٧٣٢ (١٣٣٢ م) « وكان فاضلًا يحب الفضلاء . والادباء يترددون اليه . ويجتمعون على طعامه وفي بستانه ايام السبوت ويحسن اليهم ويبرّهم » .[١] واشتهر من الاطباء رضي الدين الرحبي المتوفى سنة ٦٣١ (١٢٣٣ م) بعادة لزمها في كل ايامه لا يخلّ بها وهي « انه كان يُهمل يوم السبت ابدًا لخروجه الى بستانه وراحته فيه . ويتركه يوم بطالة عن الاشغال » .[٢]

وقد مرّ بنا من شهادة القزويني ان المتنزهين ايام السبوت كانوا لا يدعون ترك اللهو في المساء والمصير الى الجوامع للصلاة . وكانوا اذا اتفق حضور بعض مشاهير الخطباء والمحدّثين ، وحان وقت مجلسهم والقاء دروسهم ومواعظهم ، يبيتون من اجلها في الجامع ثم يعودون الى اماكنهم في الحدائق والرياض . ولما قدم دمشق الشيخ شمس الدين ابو المظفر سبط ابن الجوزي « كان له مجلس كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي عند مشهد علي زين العابدين . وكان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع الاموي . ويتركون البساتين والفرج في الصيف حتى يسمعوا ميعاده . ثم يرجعون الى بساتينهم يتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن . »[٣] فيجمعون في آن واحد بين الجدّ والهزل .

١) الوافي بالوفيات للصفدي ؛ خزانة اكسفرد *Laud. Or.* 4, f° 36 r°

٢) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ٢ : ١٩٤-١٩٥

٣) البداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني ، خزانة باريس ١٥١٦ ، ص ٧٠

دير يُونّى (يوحنا)

بظاهر دمشق

وهم في ضبطه كلٌ من ابن شدّاد في الاعلاق الخطيرة ، وشهاب الدين العمري في مسالك الابصار ، وياقوت في معجم البلدان . ورووه في حرف البآء الموحدة المفتوحة بدلًا من اليآء المثناة المضمومة . واورده ياقوت بعد دير بولس وقبل دير التجلي . ولعلّه جآء بالموحدة ايضاً في نسخ كتب الديارات للاصبهاني والخالدي . وقد سقط من نسخة الشابشتي في برلين فلا يدرى كيف كان مثبتاً فيها . واغفل ذكره البكري في معجم ما استعجم في جملة الديارات الكثيرة التي ضرب عنها صفحاً . واللفظة رومية كما هو معلوم . والدير من اديار الملكيين . ولا شك انه كان مبنياً على اسم يوحنا المعمدان لقول ياقوت والعمري ان الدير كان من اقدم ابنية النصارى « بني بعد المسيح عليه السلام بقليل » فلا تمكن من ثم نسبته الى يوحنا فم الذهب او يوحنا الدمشقي .

وفي ياقوت والعمري ان الدير كان بجانب غوطة دمشق في انزه مكان بين رياض مشرقة ، وانهار متدفقة . ولا يخفى ما في هذا التحديد من الغموض والابهام ، وهو قد يصدق على غير موضع واحد في ظاهر دمشق . ولعلّ الاغلب انه كان في ناحية باب الفراديس حيث تعددت الديارات والبيع . وقد شهد بعض شيوخ بني حمدون ، حين صحب المتوكل الى دمشق سنة ٢٤٣ للهجرة (٨٥٧ م) انهم « افوا الموضع المعروف بالفراديس ، ونزلوا منزلًا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة[1] . فلا يبعد ان دير يونّى كان في جملتها . وفي زمان العمري كان موضعه قد تنوسي واضمحلت معالمه . ولذلك قال فيه : « هذا الدير اليوم لا وجود له . وقد اقفرت الارض منه من رسم وطلل . ومضى وحادث كل

---

١) الدر الملتقط من كل بحر وسفط . خزانة بريتش موزيوم Add. 19408, f° 126b

دير بعده جلّق »[1] وكان خرابه ، دون ريب ، بعد القرن السابع للهجرة او في اواخره . لان معجم البلدان شهد انه كان صغيراً ورهبانه قليلون . وحكى ان الوليد بن يزيد الخليفة الاموي اجتاز به فرأى حسنه . فاقام به يوماً في لهو ومجون وشرب . وقال فيه :

حبذا ليلتي بدير بونّى ، حيث نُسقى شرابنا ، ونُغنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا ، يحسب الجاهلون انا جُننّا
ومررنا بنسوة عطرات ، وغناء ، وقهوة ، فنزلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو س مجوناً ، والمستشار يُحنّا
فاخذنا قربانهم ، ثم كفّر نا لصلبان ديرهم فكفرنا
واستهنّا بالناس ، فيا يقو لون ، اذا خُبّروا بما قد فعلنا[2]

ومن البيت الرابع يستدلّ على ان رأس الدير في عهد الوليد بن يزيد كان اسمه بطرس . ولعل اسم المستشار يُحنّا لم يرد معه الّا لاتمام القافية او انه اشارة الى شفيع الدير .

وفي هذا الدير يقول ايضاً عبد الملك بن سعيد الدمشقي :

تملّيت طيب العيش في دير باونا بندمان صدق اكملوا الظرف والحسنا
خطبت الى قسّ به بنت كرمة معتقة ، قد صيّروا خدرها دنّا
دفعنا اليه مهرها ، حين زفّها عروساً تهادى في قراطقها زفنا
وقمنا الى روض اريض ، وشادن غضيض تحار الحور في شكله حسنا
له جيد جيداء ، وعين غزالة يريك اذا عاينته البدر والغصنا
يغنّي فيغنينا بحسن غنائه عن الغانيات المحسنات ، اذا غنّى
وتثني لنا الاطراب رنّات عوده ، اذا عوده في حجره مرحاً رنّا
ويثني الى غيّ التصابي قلوبنا ، اذا استنطق الاوتار او حرّك المثنى
ويبدي لنا اللحن المطرب ، اذا شدا ، وقد امن الاسماع ان تسمع اللحنا
خلعنا عذار اللهو عنا ، ولم نزل اذا اسرف العذّال في العذل ، اسرفنا
وهان علينا القول في طاعة الهوى فان اكثر اللوّام في اللوم ، هوّنّا

1) مسالك الابصار ، ص ٢٥١ .

2) من الغريب ان ياقوت بعد ان روى هذه الابيات في دير بونى ونسبها للوليد بن يزيد ، نسي كلامه عليها ، وعاد ونقلها في تعريف « تل بَوْنَّا » من قرى الكوفة نيا حكى . وعزاها لمالك بن اسماء الفزاري (١ : ٨٦٥) وهو سهوٌ منه ظاهر تتابع له اشباه ونظائر

فسقياً لذاك العيش لو كان عائداً علينا وكنّا فيه مثل الذي كنّا ! [1]

وقد رويت لفظة يونّى في كل ما سبق بالباء الموحدة فاصلحناها.[2] وهذه الابيات هي كل ما وقفنا عليه من الخمريّات التي قيلت في الدير . ولا بد لها من نظائر لم تتصل بنا لكثرة تهافت الشعراء والمجّان على غشيان هذا الدير لطيب موقعه ونزاهته ، وجودة شرابه ، كسائر امثاله من الديارات المشهورة بتردّد المسلمين اليها حباً باللهو والقصف والسكر .

دير مَرْحنّا

بمصر

هو دير مار يوحنا المعمدان من اديار الملكيين بمصر . قال المقريزي :
« وهذا الدير يعرف اليوم بدير الطين (بالنون) على شاطئ بركة الحبش وهو قريب من النيل . والى جانبه بساتين انشأ بعضها الامير تميم بن المعزّ . »[3] وهو كسائر الاديار والكنائس الملكية لا يُدرى له اصل انشاء ، ولا تاريخ بناء . ولعلّه كان حيناً في حوزة الاقباط . استولوا عليه في جملة ما اغتصبوه من الملكيين ، في دولة الامويين واوائل خلافة العباسيين . وهو ما يشير اليه قول التاريخ المنحول لابي صالح الارمني :

« هو الآن (٥٦٤ للهجرة = ١١٦٨ للميلاد) بيد الملكيين . واهتمّ بتجديد عمارته قديماً ابو الفضل ابن البغدادي وابو نصر ابن عبدون يعرف بابن المدّاس متولي ديوان الشام في

---

١) برق الشام (كذا وهو بعض كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد) في خزانة ليدن Arabe 1466, f° 62

٢) وممن تابع ياقوت في غلط روايته وضبطه رينه دوسّو العالم الاثري في كتابه : *Topographie historique de la Syrie*, p. 297

٣) الخطط ، طبعة النيل ، ٤ : ٤١١ . وانما ضبط المقريزي لفظة الطين بالنون لانه كان بمصر دير يسمى دير الطير بالراء قبالة سملوط

الخلافة الحاكمية . »(١

ولما تتبع الحاكم بأمر الله معابد النصارى بالتقويض والتدمير ، لم ينجُ هذا الدير من النهب والخراب . واخذ الحاكم نفسه جانباً منه ومن البيعة وبناه مسجدًا بأذنة . وكان فيه ، فيما عدا الرهبان ، جماعة من الراهبات ايضاً كان يهتمّ بهنّ ابو الفضائل بن ابي الليث الكاتب الملكي ، شقيق ابي البركات يوحنا ، متولي ديوان التحقيق ، المقتول سنة ٥١٨ للهجرة (١١٢٤م) . وكان في جوار الدير بستان له ، جامع لصنوف الاشجار المثمرة النادرة . قال صاحب التاريخ المشار اليه :

« واتفق وفاة ابي الفضائل هذا . وكان له ابن اخت يسمّى ابي المكارم محبوب بن ابي الفرج العابودي . وكانت اخت ابي البركات ابن ابي الليث زوجة ابي الفرج هذا . فانتقل من الملة النصرانية واختتن وعمره يناهز اربعين سنة . ووضع يده على البستان المذكور . وملكه على حكم الموروث وتسلط على الرهبانات واخرجهنّ منه . وهدم المنظرة وجعلها مسجدًا واضعف الدير ، وعمل فيه همة(٢ للامام الحافظ . فحضر عنده وازداد الدير ضعفاً . وامتنع الملكيين من زيارته . ثم تواترت الفتن . وهدم معظم الدير والكنيسة . وصار امره للتلف . وكان للملكية اسقفاً بمصر يسمى يوسف . فجدد ورمّ فيه ما وصلت قدرته اليه . وهو باقٍ الى الآن (١١٦٨ م) لم تكمل عمارته كما كان لضعف الطائفة وقلة عددهم واهمال رئيسهم وتنقله عن النظر فيه وفي غيره . وعادة اسقف مصر على هذه الطائفة بالحضور الى هذا الدير في يوم الاثنين دائماً اول الجمعة الثانية من الصوم الكبير . وجماعة كبيرة من طائفته ومن القبط لسماع وصية الصوم وما يجب ان يعمل فيه . وهذا الدير ايضاً يعيد فيه في ثاني يوم عيد الغطاس . »(٢

ويعدّ هذا الدير في جملة الديارات التي اتخذها الخلعاء وعشاق الصهباء في الاسلام متنزّهات للهو والطرب ، وحانات للسكر والغناء ، لاجتماع طيب الشراب فيه الى طيب الهواء وحسن المنظر ، وإشرافه على بركة الحبش ، احدى بقاع مصر المشهورة قديماً بالقصف والبطالة . وقد ذكرته الشعراء وتغزلوا فيه فقال امية بن عبد الصلت المعري :

يا دير مرحنا ، لنا ليلة لو شُريَت بالنفس لم تُبخسِ
بتنا به في فتية أعربت آدابهم عن شرف الانفس

---

١) طبعة اكسفرد، سنة ١٨٩٤، ص٥١–٥٢ *The Churches and monasteries of Egypt*

٢) همة هنا بمعنى الدعوة . وكان يقال في دولة المماليك : صنع له مُهِمّاً ، اي دعوة او منيئاً

والنيل في شملة ظلمآئه ، كأنه الراهب في البرنس
نشربها صهبآء مشمولة تنبي عن المصباح في الحندس
وهي ، اذا تفرّ عن دنّها ، اذكى من الريحان في المجلس... (١

وللامير تميم بن المعزّ لدين الله :

أيا دير مرحنّا ، سقتك رعودُ من النيم ، يهمي مزنها ، ويجودُ
فكم واصلتنا في رباك اوانس يطفن علينا بالمدامة ، غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ، ونابت عن الورد الجنيّ خدود
وماست على الكثبان قضبان فضة فاثقلها من حملهنّ نهود
لياليَ اغدو بين ثوبَي صبابة ولهو ، وايام الزمان هجود
واذ لمّتي لم يوقظ الشيب ليلها واذ اثري في الغانيات حميد (٢

ولابن ابي عاصم فيه :

اقرأ على دير مرحنا السلام ، فقد ابدى تذكُّره مني صباباتي
وبركة الحبش اللاتي بيهجتها ادركت ما شئت من لهوي ولذّاتي
كأن اجبالها من حولها سُحُب تقشّعت ، بعد قطر عن سماوات
كأن اذناب ما قد كان صِيد لنا من أبرَميس وراي بالشيكات (٣
اسنّة خُضبت اطرافها بدم ، او دَسْتَجٌ ترعوه من جراحات
منازل كنت اغشاها واطرقها ، وكنّ قدمًا مواخيري وحاناتي (٤

وقال فيه ايضاً :

يا طيب ايامٍ سفحتُ مع الصبا ، طوع الهوى فيها بسفح المنظرِ
فالبركة الغنّآء ، فالدير الذي قد هاج فرط صبابتي وتفكري
فاحثُثْ كؤوسك ، يا غلام ، وأغنني ، فلقد سكرت وخمر طرفك مُسكري
وأرى الثريّا في السمآء كأنها تاج تنفصّل جانباه بجوهرِ
فاشرب على حسن الرياض ، وغنّني ، وانظر الى الساقي الاغنّ الاحورِ
فلعلّ ايام الحياة قليلة ، ولعلني قدّرت ما لم يُقدَّرِ (٥

---

١) معجم البلدان لياقوت طبعة اروبة ٢ : ٦٦٩
٢) ديوانه ، خزانة جامعة ليدن Arab. 2038=Amin 314
٣) الابرميس والراي صنفان من اسماك النيل ذكرهما ياقوت في جملة الاسماك التي كانت تُصاد في تنّيس (معجم البلدان ١ : ٨٦٦)
٤) معجم البلدان ٢ : ٦٦٨-٦٦٩
٥) مسالك الابصار للعمري ، ص ٢٦١-٢٦٢

وكانت بركة الحبش تعرف ايضاً ببركة المَافر[1] باسم حيّ من همدان. ولذلك كان يقال احياناً لدير مار يوحنا دير المعافر. ومنه قول صالح بن موسى مولى بني تميم يذكر الدير والبركة:

انّي لمثلك ناصح فاجنَحْ اليّ، ولا تُغَرّْ
بكِّرِ الى دير المعا فرِ، ان اوقات البُكَرْ
أوَ ما ترى حسن الريا ضِ وما كُسِين من الزَهَرْ
وجه الربيع، وحبّذا وجه الربيع اذا ظهرْ
الوشي يُنشر، والملا حف، والمطارف، والحبَرْ (٢

وقد خفيت آثار هذا الدير، ومحا الدهر رسومه ومعالمه، فلا يُدرى له مكان، ولا كيف عبث به الزمان.

١) الخطط للمقريزي، طبعة النيل، ٣: ٢٤٧
٢) كتاب الديارات للشابشتي، نسخة برلين، ص١٢٦

احتيال الملوك الايوبيين

في رشوة النسآء الفرنجيات لتجسّس الصليبيين

كان الملك العادل سيف الدين ابو بكر ، شقيق السلطان صلاح الدين ، ذا مكر ودهآء ، ورأي ثاقب ، وقدرة على افساد القلوب واصلاحها . وله في الحرب والسلم مكايد وحِيَل كان يبتدعها بفطنته الغريبة ويبلغ بها ما يروم من الاعدآء والخصوم بالطف الوسائل . ولذلك كان السلطان صلاح الدين يرجع الى رأيه ويستعين به في كل ما جلّ من خطب او حرب . ولمّا قدم له احد المصنفين كتاباً مصوراً في مكايد الحروب ومنازلة المدن ، وهو حينئذ على عكا محاصراً للفرنج ، قال: ما نحتاج الى هذا الكتاب ومعنا اخونا ابو بكر. ولا شكّ ان الفضل يعود اليه في بعض انتصارات الاسلام على اهل الصليب . وكانت له ارصاد وعيون يطالعونه بكل ما يقفون عليه من احوال الاعدآء والاوليآء . فكان يعلم ما قرب او بعد منه . ولا يجهل ما يدور في صدور بطانته ورجاله انفسهم . وله في ذلك حكايات غريبة نقل بعضها ابن سعيد المغربي ، بعد ان ذكر ما قدمناه من ركون صلاح الدين اليه وتعويله عليه . قال: « وكان يصوغ الحلي لنسآء الفرنج ويوجهه في الخفية اليهنّ حتى يسكن ازواجهن عن الحركة ».[1] ولا يخفى على احد ما في هذه الشهادة من الدلالة والشأن في تعليل تغلّب صلاح الدين على الصليبيين وانحدار امرائهم في بعض الوقائع . وكانت النسآء الصليبيات وتتنذر كثيرات الاعجاب بمصنوعات دمشق من الحلي والجواهر وثياب الوشي والديباج ، والمقانع الحريرية ، واصناف الطيب . وهي الطرائف التي قال فيها احد سفّار الطليان حين مرّ بدمشق : « لو كنتَ خبأت دراهمك في عظم ساقك لكسرته رغبة في اقتنائها »[2] فلا عجب اذا كان بعضهن لا يملكن انفسهنّ من التشوّق الى إحراز شيء منها . وقد عرف العادل من اين

١) نفح الطيب للمقري . المطبعة الازهرية المصرية ١ : ٤٦٤

٢) Simon Sigoli, *viaggio del Monte Sinai*. Rome 1819, p. 58

تؤكل الكتف معهنّ .

وممن ورث عنه حب التجسس ، ومصانعة الافرنج ، وإفساد قلوب نسائهنّ بالرُشى والهدايا للافضآء اليه باسرار القواد والجنود ، ولده الملك المعظم عيسى (٥٧٦–٦٢٤ هـ = ١١٨٠–١٢٢٧ م) وقد نقل سبط ابن الجوزي بعض اخباره في هذا الصدد ، واجتمع به في نابلس ، وسمع منه ما رواه في تاريخه . ولا تخفى قيمة شهادته ومكانتها في تاريخ الحروب الصليبية . قال :

« كان في ايام الفتح مع الافرنج يرتّب النيران على الجبال من باب نابلس الى عكا . وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنوّرون وبينهم وبين الجواسيس علامات . وكان له في عكا اصحاب اخبار . واكثرهم نسآء الخيالة . فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل . فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة . فان كان يخرج مائة فارس اوقدت المرأة شمعة واحدة . وان كانوا مائتين شمعتين . وان كانوا يريدون قصد حوران او ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية . وهكذا الى نابلس . وكان قد ضيق على الافرنج الطرق . فكان الفرنج لا يقصدون جهة الّا يجدون عسكر المعظم قد سبقهم اليها . وكان يعطي النسآء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة . فقلت له في بعض الايام . هذا إسراف في بيوت الاموال . فقال انا استغنيك . لما عزم الانبرور[1] على الخروج الى الشام اراد ان يترك عكا بغتة ويسير الى باب دمشق .

١) يعني بالانبرور (L'Empereur Frédéric II Hohenstaufen) .- وهذا التعريب اكثر ما يقرأ في كتب المؤرخين الاسلاميين . وممن آثره منهم على لفظة انبرطور – وهم اغلب ما يرسمونها بالنون . ونادرًا بالميم اي امبرطور – ابن الاثير . وابن كثير . وابو شامة . وسبط ابن الجوزي . واليافعي . وابو الفداء . وشمس الدين الدمشقي صاحب نخبة الدهر . وكتاب تشريف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور . وكتاب سِيَر البطاركة الاقباط . وابن خلكان روى به بيتَي صلاح الدين الاربلي :

زعم الزعيم الانبرور بأنه ... لم يدوم لنا على اقواله
شرب اليمين فان تعرض ناكثًا ... فليأكلنّ لذاك لحم شماله

(وفيات الاعيان ١ : ٧٤)

وذكر ابو الفدآء في جملة مصنفات القاضي جمال الدين بن واصل « الانبرورية » في

فبعث فارساً عظيماً وقال اخفِ امرنا ومجيئنا الى البلاد لِتُغير بغتة. وكان بعكا امرأة مستحسنة فكتبت الي تجربني . فبعثت لها ثياباً ملونة وعنبرًا ومقانع حرير . فلبستها واجتمعت بالفارس . فدهش وقال من اين هذا . فقالت من عند صديق لنا من المسلمين . فقال من هو . فقالت الكريدي.[1] فصلّب على وجهه وقام فخرج من عندها . قال فما زالت تلك المرأة تتلطف بالفارس وتهاديه حتى نسجت المودة بيني وبينه. فصرت أُهاديه حتى كان يبعث الي كتب الانبرور التي يبعثها اليه مختومة . وأُرسل اليه فيكتب ما اقول. فانا أُداري عن المسلمين بهذا التدر اليسير وافدي به الخطير . فان الانبرور لو جاء بغتة اسر من اهل الشام وساق من مواشيهم وامولهم ما لا تحصى قيمته.»

قال ابو المظفر : وحكى لي سعد الدين مسعود والي الجولان قال:« كنت والياً بالشوبك . وكان بها راهب منفرد في بعض الجبال. فجاءني كتاب المعظم بنفيه فنفيته . فغاب سنة وجاءني كتاب المعظم يقول أَعِدْهُ الى مكانه وتوصّ به . فبحثت عن قصته. واذا به قد بعث به الى البحر كشف له اخبار الانبرور على وجهها . واننا نفاه حتى لا يُتَّهم واطلق لـه ارضاً يعيش منها واعطاه مائة دينار .»[2]

ولم يكن المعظم يقتنع بتجسّس الرجال والرهبان والنساء له . بـل كان يتنكر احياناً ويخرج بنفسه متفحصاً وَيلج خفية ما جاوره من بلاد الصليبيين رائدًا بعض الاخبار قال الصفدي: « اشتهر عنه انه دخل عكا لكشف احوالها في زيّ زيات واقام بها اياماً ورهن خاتمه عند دكّانيّ. فلما عاد الى دمشق كتب الى صاحبها واعلمه بما جرى له وسأله ان يفكّ خاتمه وينفذه . فقامت قيامته .

المتعلق. قال منها للانبرور ملك الفرنج صاحب صقلية .

ومن تردد في كتابتها مرة انبرور ، ومرة انبرطور ، وقليلًا امبراطور ، النويري في نهاية الارب ؛ والمقريزي في السلوك ؛ وفي الخطط . ولا مشاحة في ان لفظة انبرور اخفّ واقصر واقرب للاوزان العربية واسهل إدماجاً في النظم ، فهي لذلك ارجح في الاستعمال . .

١) يظهر ان الملك المعظم كان معروفاً عند الصليبيين بلقب الكُرَيْدي. ومعلوم ان بني ايوب كانوا من اصل كردي .

٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي. خزانة جامعة ليدن Arab. 2 l. p. 278

وكاد يموت غيظاً.»[١]

وهذه اول مرة فيما نعلم يشار فيها الى مصانعة الايوبيين الفرسان والرهبان ورشوتهم النسآء بالحلي والحلل «ليسكن ازواجهن عن الحركة» . وهو ما خفي عن مؤرخي الصليبيين حتى احدثهم عهداً رينيه گروسّه . وهذه المكايد كافية لتعليل ضعف الافرنج في الدفاع عن مملكتهم السورية. وفشلهم مثلاً في الاستيلاء على دمشق حين تجمعوا لحصارها واخذوا بخناقها واوشكوا ان يدخلوها. ثم اصبحوا وهم يتسلّلون عنها بعد مراسلات وردت اتّهم فيها احد مؤرخيهم افرنج الشام بالمخابرة والارتشآء. ولا غرو فقد شارك احياناً الخاصة منهم العامة في اعانة الايوبيين بالخيانة والغدر باخوانهم اهل الصليب. وقد عثرنا في هذا الصدد على شهادة اسلامية لا تزال أُنُفاً نقلها النويري في اخبار سنة ٥٨٢ للهجرة (١١٨٦م) في كلامه على اشهر رؤسآء الافرنج في ايام صلاح الدين وهو المعروف بلقب «قومص طرابلس» le Comte de Tripoli قال :

«في هذه السنة هادن قومص طرابلس السلطان وصالحه وصافاه حتى كان يقاتل ملوك الافرنج اشد القتال . ويسبي منهم العيال . وكاد ان يُسلم ولكنه صدّه شيطانه ورماه بالربائث والحبال. وكانت مصالحة القومص من اقوى نصرة السلطان على الفرنج. ومن اشدّ ما دخل عليهم في دينهم ودنياهم. ولله الحمد والمنة.»[٢]

ومن هذه الشهادات المتقدمة يتبين أن الافرنج كثيراً ما اعانوا الاعدآء على انفسهم . وأن بعض انتصارات الايوبيين عليهم لم تكن ثمرة الشجاعة والفروسية ولكن وليدة المخادعة والافساد والتجسّس . وفي المخطوطات العربية التي لا تزال مطويّة في بطون الخزائن نظائر لهذه النصوص في اثنآء كلامها على الوقائع الصليبية . وهي حريّة بالتأمل والاعتبار لما فيها من الايضاح والاستدراك على اخبار رجال الفريقين مما لم ينتبه بعد لمكانها علمآء المشرقيات ، ولا غنى لمؤرخ القرون الوسطى من الوقوف عليها اذا لم يشأ الزلل في احكامه. فهل من ينشط لاستقرآئها وتدوينها وترجمتها حباً بخدمة الحقيقة التاريخية.

١) الجزء الحادي والعشرين من الوافي بالوفيات. خزانة اكسفرد Seld. Arch. a. 28

٢) مجلد من نهاية الارب للنويري . خزانة جامعة ليدن Arab. 19 a Gol. دون ارقام

لقب القاضي

في دولة المماليك

اختلف مدلول الالقاب السلطانية في الدول الاسلامية. كالوزير، والصاحب، والحاجب مثلاً. فكان بعضها يتضع او يتسع حسب اختلاف الدول، وربما عنى احياناً في الواحدة منها ما لا يعنيه في الاخرى. وهو ما يجب التنبه له في مراجعة الاخبار والتراجم. ومن هذه الالقاب التي خرجت عن موضوعها الاول لفظة القاضي. وبعد ان كانت مختصة بالحاكم الشرعي ابتُذلت في عهد المماليك حتى صارت تتناول كل ارباب الاقلام الديوانية، سوآء كانوا من الفقهآء والمتعممين المتخصصين بالشرع ام من طبقة المنشئين والحُسّاب. قال القلقشندي: «ان كتّاب الزمان يطلقون لقب القاضي والالقاب المتفرعة منه كالقضآئي والقاضوي على ارباب الاقلام في الجملة. سوآء كان صاحب اللقب متصدياً لهذه الوظيفة او غيرها. كسائر العلمآء والكتاب ومن في معناهم. وعلى ذلك عرف العامة ايضاً.»[1]

وقد يطلق هذا اللقب على بعض اجلاف العامة والسوقة من الأُميين العُراة من كل ادب وعلم، اذا اتفق لهم ادراك بعض المناصب السلطانية.» وفي سنة ٨٦٥(١٤٦٠/١م) استقر المعلم محمد البَباوي ناظر الدولة وترّيا بزيّ الكتبة... وصار يدعى القاضي بعدما كان يدعى بالمعلم وهو لا يحسن من الكتابة شيئاً حتى انه لا يفرق بين الالف واليآء.»[2] والبَباوي نسبة الى بَبا الكبرى من الوجه القبلي. كان فيها خفيراً او راعياً.[3]

ومن العجب ان الكتاب من النصارى واليهود ايضاً كانوا اذا أُكرهوا على

١) الخامس من صبح الاعشى، ص ٤٥١

٢) تحفة الظرفآء. خزانة الثاتيكان ٢٢٧، ص ٢٦٩

٣) السادس من الضوء اللامع للسخاوي. الخزانة التيمورية، ص ١٤٦

الاسلام . او اختاروه لمآرب لهم . حتى لهم للحال ان يتلقبوا بالقضاة . وفي سنة ٦٨٢ (١٢٨٣ م) امر السلطان الملك الاشرف خليل امرآءه باجمعهم ان يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام . فمن امتنع من الاسلام ضربت عنقه . ومن اسلم استخدموه عندهم . وكان في جملة من اختار الاسلام المكين ابن السقاعي احد المستوفين الاقباط « فالبسهم السلطان تشاريف وخرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس . فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعي . وناوله ورقة ليكتب عليها وقال يا مولانا القاضي اكتب على هذه الورقة . فقال يا بني ما كان لنا هذا القضاء في خلد .»[1]

وقد غاظ هذا القضاء المرتجل ابن تغري بردي اشد الغيظ فقال في كلامه على اسلام الشيخ الخطير القبطي سنة ٨٢٨ (٥/١٤٢٤ م) :

« وبعد ان كان يخاطب بالشيخ صار ينعت بالقاضي . وهذا من اكبر الفضائح ان رجلا يكون نصرانياً ويكره على الاسلام . او يظهر الاسلام لمعنى من المعاني . وعن قريب يسمى بالقاضي . فيشترك هو وقضاة الشرع في هذا الاسم . وقد تداول هذا البلاء بالمملكة قديماً وحديثاً . وانا لا الوم الملوك في تقديم هؤلاء . لانهم محتاجون اليهم لمرفتهم لانواع المباشرة . غير اني اقول كان يمكن الملك اذا رقى واحداً من هؤلاء الى رتبة من الرتب . لا ينعته بالقاضي وينعته بالرئيس او بالكاتب او مثل ولي الدولة او سعد الدولة وما اشبه ذلك . ويدع لفظة قاض لقضاة الشرع الشريف ولكاتب السر وناظر الجيش والفضلاء المسلمين . ليعطي كل ذي حق حقه في شهرته والتعريف به . وقد عيب هذا على مصر قديماً وحديثاً فقال بعضهم «قاضيها مسلماني . وشيخها نصراني . وحجها عواني» . قلت وان كانت الفاظ هذه الحكاية خالية من البلاغة فهي قريبة مما نحن فيه »[2]

ويعني بالمسلماني الذمي الذي انتحل الاسلام . ومنه ولا شك أُخذت لفظة musulman وهم يجمعونه على مُسالمة . وكان هذا الاصطلاح شائعاً بين المشارقة والمغاربة . قال ابن عبد ربه الاندلسي : « العرب تسمي العجمي اذا

١) خطط المقريزي ٢ : ٤٩٨

٢) السادس من النجوم الزاهرة ، طبعة ليدن ، ص ٥٨٦–٥٨٧

اسلم المسلماني . . . والعجميُّ النصراني ونحوه وان كان فصيحاً . »[١] وليُحتفظ بهذا القول الاخير . وهو حريٌّ بتأمــل من يميل من النصارى الســوريين الى التسليم بدعوى من يزعم اليوم ، لمآرب سياسية ، ان الناطقين بلغة القرآن في الشام فرعا دوحة واحدة . وكان العرب قبلًا لا يقنعون بالتبرؤ من هذه الوحدة . بل كانوا ينكرون ايضاً على النصارى حتى تعلم اللغة العربية . قال ابو الفرج بن الجوزي:

« في سنة اربعين ومائتين (٨٥٤ م) أُخذ اهل الذمة بتعليم اولادهم العبرانية والسريانية . ومنعوا من العربية . ونادى المنادي بــذلك فاسلم منهم خلق كثير . »[٢]

وممن استعمل لفظة المسلماني من اهل المغرب ابن سعيد في كتابه المُغرب وروى فيه لابي الحسين الجزار « قوله في مسلماني لا يبرح في يده كتاب :

يمشي وفي يده كتاب قلّما علم امرؤ في جهله ما قصدهُ
فاجبتهم : لا تعجبوا من فعله فابوه من اهل الكتاب وجدّهُ »[٣]

---

١) العقد الفريد ٣ : ٢٤٣

٢) عجائب البدائع ، خزانة باريس ١٠٦٧ ، ص ١٥٥

٣) المُغرب في حُلى المغرب ، ليدن ، ص ١٢٧

القراصية الدمشقية

وشهوة الخلفاء الفاطميين لها

القراصيا او القراسية ويقال لها الكراز — وكلها تعريب Cerasus باللاتينية — من اقدم فواكه دمشق. زعم الطبيب ابن القف انها كانت تعرف بدمشق بخوخ الدب[1]. وانما هو صنف آخر من الخوخ معروف اليوم. وكان يقال لها في الاندلس حب الملوك. وقد انقطعت اشجارها من الفيحاء تقريباً كانقطاع غيرها من صنوف الفواكه التي كانت تجتز اصولها في الفتن والثورات، اثناء استبداد الحكام الاتراك بسياسة المدينة، وعسف اعوانهم من الجنود وجباة الاموال الاميرية. ومن قابل اليوم بين انواع فواكه الغوطة وما ورد منها في تذكرة الصفدي ومحاسن الشام للبدري يتحقق كثرة ما ضاع او زال منها او من بعض اصنافها. وكثيراً ما كانت تُبتلى دمشق بمثل هذه النكبات في عهد المماليك ايضاً. ففي سنة ٧٠٠ للهجرة مثلاً (١٣٠٠/١م) في اثناء غزاة التتار المشهورة «جبي من اهل دمشق أجر املاكهم لاربعة اشهر. والثلث من ريع ضياعهم وضمانات بساتينهم ومزارعهم. وحصل للناس من ذلك ضرر عظيم واختفى بعضهم. والذين وقعوا بهم الزموهم حتى قطعوا اشجارهم بثمرها وباعوها حطباً بحيث بلغ القنطار الحطب بالدمشقي ثلاثة دراهم. وكان ذلك اشد من التتار.»[2]

وفي اوربة اليوم انواع عديدة من القراصية بين حلو وحامض ومزّ وعفص. على اختلاف في الوانها من احمر واسود واشقر واصفر مشوب بحمرة. وكان اكثرها معروفاً في الغوطة في القرن السادس عشر. ويظهر انها كانت وقتئذ اوفر منها في زمان صلاح الدين الصفدي لانه لم يسمّ منها في تذكرته الا خمسة فقط

١) جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض. خزانة بريتيش موزيوم. Or 3690، الفصل الثالث والاربعون.

٢) النهج السديد للمفضل بن ابي الفضائل. خزانة باريس ٤٥٢٥، ص ١٢٤

وهي : سبقية ، فرنجية ، رشيدية ، بعلبكية ، ومجهولة[١] . وعدّ منها البدري سبعة : رشيدية ، بعلبكية ، افرنجية ، رومية ، طعامية ، فيجية نسبة لقرية الفيجة بظاهر دمشق ، وبزرة . كذا دون نسبة . واذا لم تكن هذه التسمية تصحيف بزيّة نسبة الى قرية برزة فلعل الاصل مزّية اي من غراس قرية المزّة لقول البدري نفسه ان احسن اصناف القراصية كانت البلدية المنسوبة الى وادي مكرم . قال وهو بين الربوة الى تحت صحن المزة[٢] . وكان اجملها واكثرها في ايام ابن طولون الصالحي في القرن العاشر للهجرة الفيجية[٣] .

وقلّ من تكلف وصف القراصية من الشعراء خلافاً لسائر فواكه دمشق . ولذلك اقتصر البدري على ثلاث مقطعات فقط لهُ في القراصية الحمراء . أولاها :

كأنما القراصيا ، لما بدت للنظر

حبة مرجان تُرى في رأس خيط احمر

وهو وصف صادق التشبيه . وقد استوعب اكثر كلامه عليها اقوال الاطبآء في منافعها ومضارّها كعادته في شحن اوصافه بآراء الاطبآء . وهي اكبر شوائب كتابه . وليته أُلهم في مكانها الإفاضة في الاوصاف الزراعية والتجارية لعلة ما اتصل بنا منها .

والقراصية من جملة « القافات » التي كانت تحمل من دمشق للديار المصرية . واكثر ما يقصد بها السلطان . ويظهر ان هذه العادة قديمة سبقت قدوم الخلفاء الفاطميين الى مصر . وكان اكثر ما يذهب منها في القرن العاشر للهجرة احمال من القراصية الفيجية في علب على بغال بطريق العريش[٤] . وهو الطريق الذي كان ينقل فيه الثلج احياناً على ظهور الجمال لشراب السلطان . وربما كانت توسق الفواكه والثلوج من بيروت وصيدا في مراكب البحر الى دمياط ومنها الى القاهرة في النيل . وقد استبطأ مرة الخليفة العزيز بالله (٩٧٥—٩٩٦) وصول

١) فصول من الجزء العشرين من تذكرة الصفدي في مجلد ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي في خزانة بريتيش موزيوم Add. 7415, f°228

٢) محاسن الشام ، ص ١٩٣

٣) وصف ربوة دمشق لابن طولون ، في مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٢ ، ص١٥٣

٤) وصف ربوة دمشق لابن طولون .

القراصية ، وكاد يهم بالسفر لدمشق لشدة شهوته لها ، كما حكاه المقريزي في اثناء كلامه على الوزير يعقوب بن كلّس من اسالة اليهود. وهذا نصّ ما اطرفنا به قال:

اراد العزيز بالله ان يسافر الى الشام في زمن ابتداء الفاكهة. فامر الوزير ان يأخذ الأُهبة لذلك. فقال يا مولاي لكل سفر أُهبة على مقداره. فما الغرض من السفر. قال اني اريد التفرج بدمشق لاكل القراصيا. فقال السمع والطاعة. وخرج فاستدعى جميع ارباب الحمام (١. وسألهم عما بدمشق من طيور مصر واسماء من هي عنده. وكانت مائة ونيفًا وعشرين طائرًا. ثم التمس من طيور دمشق التي هي في مصر عدة. فاحضرها وكتب الى نائبه بدمشق يقول ان بدمشق كذا وكذا طائرًا. وعرفه اسماء من هي عنده. وامره باحضارها اليه جميعها. وان يصب من القراصيا في كل كاغدة ويشدها على كل طائر منها ويسرّحها في يوم واحد. فلم يمض الا ثلاثة او اربعة ايام حتى دخلت الحمائم كلها ولم يتأخر منها الا نحو عشر. وعلى جناحها القراصيا. فاستخرجها من الكواغد وعملها في طبق ذهب وغطّاها وبعث بها الى العزيز بالله مع خادم. وركب اليه وقدم ذلك وقال يا امير المؤمنين قد حضرنا قبالك القراصيا هنا. فان اغناك هذا القدر والا استدعينا شيئًا آخر. فعجب العزيز بالوزير. وقال مثلك يخدم الملوك يا وزير.» (٢

وهذه الملحة تنبئ عما اتصف به يعقوب بن كلس من الفطنة والذكاء المفرط. ولا شك انه لما توفي وشيّعه العزيز الى القبر، ووقف يبكي عليه، كان بين الدموع التي تساقطت من عينيه الشريفتين درر تناثرت على ذكرى القراصية التي استدعاها له من حاضرة الامويين بوسيلة مبتكرة لم يسبقه احد اليها. وفي ما اشار اليه المقريزي من اخبار الطير بمصر ودمشق ومعرفة اصحابها، وتقييد اسمائهم في الديوان، وترتيب شروط اطلاقها، دليل بيّن على شدة عناية القوم بها وحسن استخدامهم لها. وشاهد من شواهد الحضارة الفائقة التي تمتع بها الشرقيون في العصور الوسطى. ولعلّ ما خفي علينا من رسومها وآدابها اجلّ واعجب مما نعلمه من اوصافها ومزاياها.

١) يريد بالحمام حمام الزاجل او الحمام الهادي الذي يرسل بالكتب على بعد.
٢) الخطط. طبعة النيل ٣: ١٠

الفواكه المكتوبة او المصوّرة

في الشرق

اشتهر اليوم التصوير في الغرب على التفاح والكمثرى ، وبُلغ فيه مبلغاً ليس بعده غاية في الحسن والاتقان. وكان الشرقيون يؤثرون الكتابة على التفاح لطيب رائحته وبهجة لونه ولطف موقعه في الاهداء. ولم نقف قط على اشارة واحدة الى انهم كتبوا مرة على الكمثرى. ولهم في الكتابة او النقش والتصوير طرائق مختلفة نصف منها ما عثرنا عليه بلفظه:

الاولى «ان يعمد الى الشمع فيُذاب وتُصنع منه تماثيل وحروف او نقوش. وتلصق على التفاحة وهي خضراء قبل احمرارها. او تُميع الشمع كثيراً وتكتب به عليها قبل احمرارها فانها اذا انتهت بقي ما تحت الشمع اصفر. واحمرّ منها ما سوى ذلك.»[1] -

الثانية «اذا اردت ان تنقش التفاح الاحمر فاكتب عليه وهو اخضر ما احببت بالمداد واتركه. فاذا احمرّ فامحُ عنه المداد تجد مواضع الكتب ابيض حسناً.»[2]

الثالثة «ان يُقصّ من ورق الكاغد شكل كتابة . اي كتابة شئت . وتلصق تلك الكتابة على التفاحة اذا بلغت نصف عِظَمها او اقل. في سواء الصاقاً محكماً. وتترك حتى تبلغ الثمرة. فيتزع عنها الورق . فانه يوجد ما تحته اصفر لم تصل اليه حرارة الشمس فتصبغه صبغ بقية الثمرة فتبقى كتابته طبيعية ظاهرة مخالفة للون سائر الثمرة.»[3]

---

١) كتاب الفلاحة اليونانية لقسطوس بن لوقا. المطبعة الوهبية. بمصر ، سنة ١٢٩٣ للهجرة (وهو تعريب قسطا بن لوقا الرومي الملكي البعلبكي).

٢) كتاب الفلاحة لابي عبدالله محمد بن الحسين. خزانة باريس ٤٧٤٦ ، ص ١٢. ومثله في كتاب الفلاحة لمؤلف مجهول ، في خزانة باريس ٢٨٠٩ ، ص ٩

٣) فصل من كتاب سَمَر السُمَّار في ليالي الاثمار في وصف ثمار سائر الاشجار. خزانة اكسفرد M. S. Sale 70 f°21

وهذه الطريقة الاخيرة هي التي كانت شائعة بمصر. وكانوا ببغداد يكتبون بحمرة في بياض. او ببياض في حمرة. والتفاح بعد في اغصانه. وذلك بان يعرضوا موضع الكتابة للشمس اذا كان التفاح ابيض. او يستروه بالمداد اذا كان احمر. وربما تراسل المحبون بالتفاح الاحمر بعد قطفه. وهو في الاسواق. بالكتابة عليه بمآء الذهب اشارة الى الصفرة والنحول من الوجد. والجواب عليه بالمداد الاسود ايذاناً بالنفور والصدّ. وممن ذُكر بالكتابة عليه وهو في اشجاره وحمّله قصائد غزله وغرامه. الشاعر الملقب بشعر الزنج. وكان وقّاداً في اتون حمام ببغداد. يجيد النظم إجادة اكثر نظرائه من الشعراء المحترفين مثل ابي القاسم نصر الخبزارزي. وابي الحسين الجزّار. وابي الفرج الوأوآء الدمشقي المنادي على الفواكه في دار البطيخ وغيرهم. ثم ابتُلي بالهوى فاستوضع حرفته وصار ناطوراً يحفظ البساتين. وقصد بستان التفاح الذي لا يوجد في بغداد اكثر منه تفاحاً. وصار يختار احسنه ويكتب عليه شعره وهو اخضر. ويتلطف بايصاله الى من يهواه ويبيعه عليه بما اراد دون مماكسة. ومن التفاح الاصفر الذي كتب عليه بالاحمر:

تفاحة تخبر عن مهجة اذابها الهجر واضناها
يا بؤسها ، ماذا جا ؟ وبالها أبعدها الحب فاقصاها

وكتب ببياض في حمرة:

نبتُّ في الاغصان مخلوقة من قلب ذي شوق واحزان
صفَّرني سقم الذي لونه يخبر عن حالي واشجاني

وعلى اخرى باحمر:

تفاحة صيغت كذا بدعة صفرآء في لون المحبينا
زيّنها ذو كمد مدنف بدمعه اذ ظلّ محزونا
فامنن فقد جئت لهُ شاكياً رُقيت من بلواه آمينا (١

ومثل هذا الشعر من وقّاد اشهى الى الارواح من طيب رائحة التفاح.

وكان بعض الظرفآء والظراف ينقشون على التفاح ما طاب لهم من النقوش قبل اهدائها. قال ابو الفرج الاصبهاني:

١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١: ١٢٩-١٣٠

« اهدت جارية يقال لها خِداع الى محمد بن امية وكان يهواها تفاحة مغلّجة منقوشة مطيَّبة حسنة. فكتب اليها محمد:

خداع ، أهديت لنا خدعة   تفاحة طيبـة النشر
ما زلت ارجوك، واخشى الهوى،   معتصماً بالله والصبر
حتى اتتني منك في ساعة   زحزحت الاحزان عن صدري
حشوتها مسكاً وتقّشتها   ونقش كفيك من السحر
سقياً لما تفاحة أهديت   لو لم تكن من خُدَع الدهر[1]

ومع كل ما قيل عن تحريم التصوير في الاسلام لا نرتاب ان بعض التفاح كان يُصوَّر. واي شيء ازهى من التفاح لتزيين صور الملاح. وكان اهل فارس خصوصاً من ارغب الناس واحذقهم بالتصوير في الاسلام كما يستدلّ من بعض المخطوطات المزوَّقة باقلام كتابهم المصونة الى اليوم في خزائن الغرب والشرق . وممن برّز بالاجادة فيه الاستاذ الرئيس ابن العميد. قال ابن مسكويه: « كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدّعيها احد كعلوم الحِيَل (mécanique) . ولطف كف لم يسمع بمثله . ومعرفة بدقائق علم التصاوير وتعاطٍ بديع . ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته واهل أنسه التفاحة وما يجري مجراها . فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره . لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة وفي الايام الكثيرة ما استوفى دقائقها ولا تأتّى له مثلها . »[2]

---

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ١١ : ٣٥

٢) الثاني من الجزء الاخير من تجارب الامم لابن مسكويه ، ص ٢٧٨-٢٧٩

خانات دمشق القديمة

الخان لفظة فارسية الاصل بمعنى البيت والمنزل. ولذلك أُطلقت في الاستعمال على الحانوت وهو منزل التاجر، وعلى الفندق وهو منزل المسافر. ولا تزال الخانات بدمشق تتناول كلا المنزلين. ففيها الخانات العامة كالفنادق والاسطبلات لبعض الغرباء والمكارين وللدواب. والخانات الخاصة للتجار او الصيارف كخان اسعد باشا المشهور باتقان بنائه وجماله واتساعه. واغلب ما كانت تُعرف مثل هذه الخانات التجارية باسم الوكالة او القيسارية. وفي سنة ١٠٠٥ (١٥٩٦م) بنى مراد باشا، والي الشام، القيسارية المعروفة بالمرادية. قال المحبّي: «اخذ البيوت التي وراء باب البريد وعمرها وكالة حسنة. وامر ان تسكن فيها تجار سوق الباهية... وقال الشيخ ابو الطيب الغزي في تاريخ الوكالة:

...وليَ الشام مراد فبنى خير وكاله

والوكالة اسم للخان كما هو المعروف في عرف المصريين. والدمشقيون يسمونه قيسارية.»[1]

والصحيح ان القيسارية بدمشق كانت تُطلق خصوصاً على ما اتّسع من الدور الجامعة. تكون في وسطها غالباً بركة للماء ودكاكين او حُجَر للتجار كالاسواق يضمها سور واحد. قال ابن كثير في اخبار سنة ٧٤٧ (١٣٤٦م): «فتحت في اول هذه السنة القيسارية التي انشأها النائب الامير يلبغا ظاهر باب الفرج... وداخلها قيسارية تجار. وفي وسطها بركة ومسجد وظاهرها دكاكين. واعاليها بيوت للسكنى»[2]

وكانت القياسر بدمشق اوفر من الخانات لاصطلاح التجار فيها وارباب الصناعات على اختصاص دور واسواق لهم. تنفرد بها اصحاب الطبقة الواحدة.

---

١) خلاصة الاثر ٤: ٢٥٦–٢٥٧

٢) ذيل ابن قاضي شهبة. خزانة باريس ١٠٩٨، ص ٧٨

كقيسارية القطن انشاء الملك المعظم[١]. وقيسارية القواسين والكفتيين. وقيسارية الرماح[٢]. وقيسارية الصوف. وقيسارية الاقباعيين . وقيسارية العبي . وقيسارية ابن البابي ، وكانت لمساكن تجار الفرنج ، ولما التهمتها النار في حريق سنة ٧٩٤ او ٧٩٨ (١٣٩٢ او ١٣٩٥م) تلف للافرنج فيها شيء كثير[٣] الى غير ذلك من القياسر العديدة التي كانت دمشق غاصّة بها . وقد زالت باسرها ولم يبقَ منها بقية وغلب اسم الخان في العهد الاخير على القيسارية ولذلك اشتهرت به قيسارية اسعد باشا واشباهها.

وكذلك كانت الخانات تسمى كثيرًا باسماء البضائع التي تباع فيها نظير خان الحرير . وخان الجوخ او الجوخية[٤]. وخان الجوار وهو الخان الذي كانت تجلب اليه الجواري من الرقيق قديمًا . وخان الزيت . وخان البقساط[٥]. وخان الحرفان[٦].وخان البيض[٧]. وخان الشقق ويدعى ايضًا خان مخشي[٨]

وربما نُسبت الخانات الى بُناتها او المقيمين فيها او النازلين بها . كخان

---

١) تاريخ حوادث الزمان وانبائه للجزري . باريس ٦٧٣٩ ، ص ٦٨

٢) تاريخ البدر للعيني . خزانة بريتش موزيوم *Add.* 22360, f° 39

٣) الدرة المضية في الدولة الظاهرية لمحمد بن صَصَرَي . خزانة اكسفرد *Laud.* *or.* 112, f° 172 . وفي ذيل ابن شهبة ان هذا الحريق كان في سنة ٧٩٨

٤) قال المرادي في ترجمة الاديب مكي الجوخي: «قدم جده يس من حلب الى دمشق في حدود سنة ستين والف (١٦٥٠م) ونزل في خان الجوخية بدمشق في تجارة» (سلك الدرر ٤: ١٢١)

٥) الثاني من ذيل السخاوي على دول الاسلام للذهبي. خزانة اكسفرد Marsh. 611, f° 144

٦) كان هذا الخان في سوق العنبرانيين الى جانب الجامع الاموي . اشترى ارضه عبد اللطيف المحبّي وعمر فيها داره وتوفي سنة ١٠٢٣ (١٦١٤ م) (خلاصة الاثر ٣: ١٩)

٧) قال ابن قاضي شهبة في اخبار سنة ٧٧٠ (١٣٦٨ م) في اوائلها فتح الخان المقابل لخان البيض الذي انشأه النائب منجك ، وذكر ابن كثير إنه أوجر بسبعة عشر الفًا (الذيل . باريس ١٠٩٨ ، ص ١٩٥)

٨) الدرة المضية لابن صصري ، ص ١٧٢–١٧٣

الخازندار عند مسجد القصب[١] وخان الزنجاري بالعقيبة[٢] وخان الجبالين[٣] وخان سليمان باشا ، ويقال له خان الحاصنة لان تجار حمص كانوا ينزلونه . وخان الزعفرنجية[٤] . الى غير ذلك من الخانات البائدة او العامرة.

وكان في الصالحية بعض خانات عُددت في الباب السابع من كتاب المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية لجامعه محمد بن كنان . وهو محفوظ في خزانة برلين Wetzst. II n° 1117 لخصه من تاريخ الصالحية لجمال الدين يوسف ابن عبد الهادي الصالحي الدمشقي.

وقد تحولت بعض خانات دمشق قديماً الى حانات للسكر ومواخير للفسق والفجور . وفي سنة ٧٩٨ (١٣٩٥م) « أُخبر قاضي القضاة ان خاناً بالقرب من قبة الشحم فيه خمور كثيرة . يباع فيه الخمر جهاراً . فتوجه نحوه في طائفة يسيرة . فوجد الامر كما قيل . وهرب من في الخان . . . فاقتلعوا الخوابي وكانت مدفونة في الارض مملوءة خمرًا . فحملت الى دار السعادة . وضرب النائب اصحاب الخان ضرباً مبرحاً . وطيف بهم »[٥] . واشتهر من هذه الخانات خان الزنجاري بظاهر العقيبة « كان فيه خواطي كثيرة وخمور ومنكرات عديدة . . . فهدمه الملك الاشرف موسى ابن العادل سنة ٦٣٥ (١٢٣٧م) وامر بعمارته مسجدًا جامعاً سماه جامع التوبة »[٦] . ونظيره الخان الذي اخربه مراد المرادي المتوفى سنة ١١٣٢ (١٧٢٠م) وبنى على انقاضه مدرسته المعروفة به[٧].

وفي كتاب الروضة الغناء فصل وجيز لخانات دمشق في القرن التاسع عشر ابلغها الى ١٣٩ خاناً ، ولكنه لم يسمِّ منها الا ١٢ فقط . وفي سنة ١٩٠١ وجدنا بين جزازات الخزانة الظاهرية نبذة وضعها مؤلف تاريخ الصالحية السابق

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ، ١٥٩٩ ، ص ٢١٤
٢) تحفة ذوي الالباب للصفدي . باريس ٥٨٢٧ ، ص ١٥٣
٣) الدرة المضية ، ص ١٧٢
٤) الروضة الغناء لنعمان القساطلي ، ص ١١٠
٥) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٩ ، ص ١١٢-١١٣
٦) البداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني . باريس ١٥١٦ ، ص ٣٦
٧) سلك الدرر ٤ : ١٢٠

الذكر ، وهو المعروف بابن المبرّد ، في ذكر خانات دمشق في زمانه ، اي في القرن التاسع للهجرة. ويظهر انه لم يتمها لانه لم يتجاوز في تعدادها ٦٤ خاناً فقط . ويبعد جداً ان يكون هذا القدر وحده مجموع ما كان منها وتتنزر · ولم يُشر بكلمة الى ما كان في المدينة وارباضها من القياسر · واقتصر على تسمية جانب قليل من الخانات التي سردها ، وذكر ما كان يباع فيها ، واغفل بقيتها دون ان يعيّن مواقعها بالضبط . ولا يخفى ما في هذا التقصير والابهام من فوات الفائدة للمؤرخ والاثري . وهذا نصّ الصفحات الثلاث التي استنسخناها .

كتاب الاعانات على معرفة الخانات

جمع كاتبه يوسف بن حسن بن عبد الهادي

اجزت لاولادي روايته . وكتبه يوسف بن عبد الهادي

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين . وعلى آله وصحبه اجمعين. وبعد فهذه نبذة اذكر فيها خانات دمشق . واعلم ان فيها عدة خانات اذكرها على الترتيب

الصالحية	فيها في الجهركسية خانان . وعند البيمارستان خانان احدهما خان العنب . والثاني صار حاصلًا للخشب . وبسوق الفاكهة ستة خانات الاول دار الطعم . والثاني خان المدرسة تحته . والثالث في وسط السوق . والرابع للمدرسة براس السوق . والخامس خان ابن هواش . والسادس خان السبيل بالسكة . وكان تحت المدرسة خان هدّه الحاجب ابن مبارك وبناه حماماً
سوق صاروجا	به خان يباع به
دار البطيخ	بها ثلاثة خانات . الاول الشامي . والثاني عند باب المسجد قبلة . والثالث فوقه وبابه شامي
العقيبة	بها خانان من جهة الغرب . احدهما غربي الجامع . والثاني غربي السوق من تحت صار حاصلًا للخشب
تحت القلعة	خانان . الاول تحت جامع يلبغا . والثاني في التنليين تباع فيه البضائع
بباب الفرج	خان في المضربين
بسوق العمارة	ثلاثة خانات . الاول عند الحمام تباع فيه البضائع . والثاني شرقي الحمام يقال له خان عبد الباسط . والثالث خان براس العمارة وكان تحت مقابر

الفراديس خان ابن النحاس. فقتل فيه تاجر رومي. فهدمه وبناه مدرسة.
وفوق الطيبين خان تحت الحمام

سوق مسجد القصب به عدة خانات . الاول غربي السوق على بابه يعطار . والثاني في الزقاق
الشامي الذي تجاه الجامع. والثالث خان الشهابي المعد لفنول الحلبيين

وبالسبعة عدة خانات. الاول دار الطعم العتيقة. والثاني خان شرقيها عند الدقاقين.
والثالث خان تحته في وسط السوق. وتحت خان آخر. ومن جهة الشرق
خان آخر. وخان الزيت كان هناك واخدم وزال

بباب البريد خانان . الاول عند الحبس. والثاني في الاخفافيين

وعند باب الجامع الشرقي الذي بالدرج خان. وفي اول سوق السلاح خان

وفي راس سوق السروجيين اربع خانات. وتحت ذلك في الدرب تجاه الحمام خان

وفي الطريق الذي غربي جسر الزلابية وشرقي الميدان خانان

وفي سوق حكر السماق خان

وفي طريق القنوات خان

وفي البزوريين خان

وبسوق جقمق خان التكة

وبسوق باب السريجة الذي غربي باب الجابية عدة خانات. الاول الذي يتزله جلَّابة العبيد .
والثاني خان ابن المال الكبير . والثالث خان صغير بعده يباع فيه
مثل الباذنجان . والرابع خان صغير غربيه. والخامس خان ابن ثريدة
تباع فيه البضائع. والسادس . والسابع خان تجاهه
يباع فيه القمح وغيره. والثامن خان السطل بعده. والتاسع خان يباع
فيه العنب بعده

وفي الدرب الذي تحت سوق اللحامين ثلاثة خانات

وفي القصبة التي من باب المصلّى الى راس القُبيبات اربعة خانات

وبباب الصغير ثلاثة خانات

وبالقابون خانان . احدهما خان السبيل

فهذه اربعة وستون خانًا (١

---

١) اذا اسقطنا الخانات التي هدمت يكون مجموع الباقي ٧٦ خانًا وليس ٦٤

دور النصارى

في اقرار الخلافة الاموية

بقلم فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

مادة محاضرة أُلقيت في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت ، وفي طرابلس — ولما كانت خلاصة ابحاث متشعبة غايتها ان تعرض النتائج التاريخية على اسلوب البسط والتقريب ، رأينا ألّا نرهق حواشيها بالتعاليق التامّة ، فلم نذكر من المصادر الّا ما كان ضروريًا لتأييد رأي جديد ، او لازالة استغراب قد يعلق بذهن من شبّ على تذوّق غرائب بعض « الروايات التاريخية » ، محيلين القرّاء على اشهر الكتب التاريخية في الموضوع ، مذكورًا اهمها في آخر هذا البحث.

وهل للنصارى من دور في إقرار خلافةٍ اسلامية ؟

نعم ! ودور مهمّ خلّد أثره التاريخ ، بعد ان اشاد بذكره شعراء العرب من نصارى وغير نصارى.

في هذا الدور تجلّت اروع صفحات الاتحاد الوطني ، كما سطع الدليل الواضح على ما يفيده التعاون بين الطوائف والعناصر ، اذا ما رافقه الاخلاص في حبّ الوطن الواحد.

ولا بدّ من القول اولًا اننا نفهم بلفظة « نصارى » ما فهمه بها كتّاب العرب الاقدمون[1] ، فميّزوا بين النصارى والروم اي مسيحيي بيزنطية ، كما ميّزوا بينهم وبين الفرنجة اي مسيحيي الغرب. فالنصارى هم مسيحيّو الشرق من

[1] كالجاحظ مثلًا ، وهو يميّز بين النصارى والروم ، فيقول في تفصيل انواع العمائم : « . . . وللخلفاء عمّة ، وللفقهاء عمّة . . . وللروم والنصارى عمّة . . . » (البيان والتبيين ، طبعة السندوبي ، مصر ، ١٩٢٧ ، ٣ : ٦٥) ويقول : « ولو علمت العوامّ ان النصارى والروم ليست لهم حكمة . . . وليس (ارسطاطاليس) بروميٍ ولا نصراني . . . وليس (بطليموس) بروميٍ ولا نصراني . . . (الردّ على النصارى ، في ثلاث رسائل ، طبعة J. Finkel ، مصر ١٩٢٧ ، ص ١٦) — واطلب A. S. Tritton, *Naṣārā*, dans *Encyclop. de l'Islam*, III, 906

العائشين خاصة في ظلّ الدولة الاسلامية ، سواء أكانوا من مغاربة الآراميين او مشارقتهم ، يعاقبة او موارنة او سرياناً كاثوليكيين ، نساطرة او كلداناً او ملكيين.

ولا بدّ ثانياً ، قبل ان نعمل على تحديد دور النصارى في العهد الاموي ، من ان نلقي نظرة سريعة على ما سبق هذا العهد من حوادث جليلة غيّرت وجه الشرق الادنى دينياً ومدنياً. الا وهي حوادث الفتح العربي.

يجب ان نجتهد في التجرّد عن الاميال والاهواء والنزعات الجنسيّة والدينية ، فننظر بعين الصراحة الى هذه الحوادث ، ونقيسها بمقياس التاريخ العادل . فلا نتعصب للعرب ، ولا على العرب. ولم يخلُ شعبٌ من نقائص وفضائل.

ان ما وقر في اذهاننا من ذكر النزوات البربرية في العصور القديمة ، ووصف الاكتساحات المغولية والتترية والتركية في العصور المتوسطة ، وما نعرفه من بلايا الحروب العصرية ، يمثل لنا فظائع واهوالاً في الحضارات المضنكة ومظاهر التخريب والتدمير ، نطبّقها ، دون انتباه ، على الفتوحات العربية في الشام.

هذا من جهة . ومن جهة اخرى ترانا آخذين ، دون نقد ، باقوال مؤرّخين كتبوا بعد هذه الحوادث باكثر من قرن ، ولم يخلوا من نزعات وميول . فمن عبّاسيين وعلويين الى حجازيين وعراقيين ... ولا يتسع بنا المجال لتحديد هذه النزعات وتفصيل مراميها ؛ انا نكتفي بالاشارة الى وجودها .

حتى اننا نخال العرب — اذا ما حشونا ذاكرتنا بهذه الروايات — نظّموا خطّة الفتح في الحجاز. ونفّذوها على ادق ترتيب ، كما ينفّذ قوّاد العصر خططهم الحربية . فجمعوا الجيوش المنظّمة ، وساروا الى اليرموك ، فصادفوا ، في انتظارهم ، جيشاً بيزنطياً منظّماً كذلك . وقد بلغ بعدده بعض المتصدين بالارقام ٢٠٠،٠٠٠ فقط ، واوصله غيرهم الى ٦٠٠،٠٠٠ . فانتصر عليه العرب ، ولم يبلغوا الثلاثين الفاً — ولا يجوز ان نعجب بالأمر ! — ثم اندفعوا يكتسحون بلاد الشام...

وهنا يتفنّن المتعصبون على العرب فيقولون ان المسلمين اعملوا السيف في انحاء الشام ونهبوها واحرقوا بعض قراها ، واجبروا الناس على الدين بالاسلام. فهجرها اهلها ، فتناقص عددهم من خمسة عشر مليوناً الى خمسة ملايين.

كلها روايات آخذة بنصيب وافر من الاسطورة.

من الحق ان كثيرين من سكان هذه البلاد هجروا مدنهم وقراهم على اثر الفتح العربي. الّا ان عددهم لا يتجاوز الآلاف. ومن الحقّ انه هلك عدد قد يكون كبيرًا من الشاميين. وهو امر طبيعي في ايّ بلد كان مسرحاً للمعارك.

امـا القول بان المسلمين الفاتحين اعملوا السيف في سكان الشام، او اضطهدوهم واجبروهم على الدين بالاسلام، فهو اقرب الى الخيال منه الى الأمر الواقع. والواقع ان امراء المسلمين في صدر الدولة الاموية كانوا يعيشون على اتم الوفاق مع النصارى، سكان البلاد الاصليين، كما سنفصّله في هذا البحث.

وهناك وهم آخر يجب تبديده قبل الكلام عن معونة النصارى للمسلمين في اقرار خلافتهم. هو ما استخرجه بعض المستشرقين، وفي طليعتهم دي گويه (de Goeje)، اذ طبّقوا نظرياتنا العصرية في سموّ العنصر البلدي، وما يدعو اليه من نزعات قومية، على العرب قبل الفتوح. فاستنتجوا ان عرب الحجاز أتوا سورية فاتحين ليخلّصوا «اخوانهم عرب الشام» من نير الاجنبي (كذا!). ولا يخفى ان مدلولات الوطن، والعنصر، والقومية، وما اليها كانت غريبة عن اهتمام البدو في جزيرتهم، وهم اقرب الناس الى النزعة الفردية. انما وُلدت بعد ان تكوّنت الامبراطورية العربية على عهد الامويين بفضل السوريين واللبنانيين: نصارى وغير نصارى.

* * *

بقي ان ننظر بدقة الى حالة بلاد الشام وسكّانها قبيل الزحف العربي.

لم يكن في هذه البلاد ثلاثون مليوناً من البشر، كما ذكر بعض ذوي المخيّلات المولّدة. بل لم يكن فيها خمسة عشر مليوناً. ولم يكن في قيسارية — قيسارية فيلبّس، او بانياس سورية اليوم — ٧٠٠٬٠٠٠ مدافع، و٣٠٬٠٠٠ سامري، و٢٠٬٠٠٠ يهودي، و٣٠٠ سوق يقوم بحراستها، كلّ ليلة، ١٠٠٬٠٠٠ جندي، كما ذكر البلاذري[1]، اصدق مؤرّخي الفتوح العربية قاطبة.

[1] البلاذري: فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ص ١٤١

وأين هذه المدينة الجبّارة، المتسعة الرقعة في الجبال، من بانياس الحقيقية، وهذه آثارها لا تزال ماثلة للعيان في عصرنا؟ وهي، مهما بولغ في عظمتها السابقة، لأوضع من ان يقوم على اسوارها كل ليلة مائة الف جندي (!)

ولنقس على ما ذكر ما لم يُذكر من مبالغات رواة العرب واخباريّيهم. وقد اصبح من النافل ان ندلّ على اغفالهم اصول التدقيق الحسابي، وعلى مجازفتهم بالارقام حتى كأنها لا تمثل شيئاً مهماً في نظرهم[1].

بيد اننا اذا ما عرضنا امر هذه الجيوش، الغازية والمدافعة، على ما نعرفه من عدد امثالها في الحروب البيزنطية - الفارسية، فثبت لنا، بواسطة مؤرخي البيزنطيين، ان الامبراطور هرقل، لما سار بحملته الشهيرة على بلاد فارس، لم يمكنه ان يجمع من الجنود الّا عشرة آلاف، دُفعنا طبعاً الى التخفيض من هذه المئات من الالوف المكردسة جزافاً، فاقتربنا من التقدير القائل ان الجيش البيزنطي اكثر ما بلغ عدده في وقعة اليرموك كان نحو ٣٠ الفاً يقاوم نحو ٢٥ الفاً من العرب[2].

وقد لا نخطئ الحقيقة اذا قلنا انه كان في مناطق سورية الجغرافية جميعها نحو من الخمسة الملايين. ولم يكونوا من «العرب الذي يئنون تحت نير الاجنبي» وينتظرون «اخوانهم» عرب الحجاز ليخلّصوهم. انما كانوا من عناصر مختلفة وطوائف متنوّعة شأنهم اليوم، وشأنهم كل زمان.

الّا ان هناك عنصرين قويّين كانا الاصليَّين في بلاد الشام؛ وهما: العنصر الآرامي في الشمال والوسط. والعنصر الكنعاني - الفينيقي على الساحل وفي الجنوب. وليس من شك في ان الشعوب المتفرّعة عن هذين العنصرين كانت تتأثر بالعناصر الدخيلة المتسرّبة اليها من الشمال، من ثغور جبال طوروس، من تلك المنافذ التي دعاها الروم «بالابواب»، والعرب «بالدروب». كما كانت تتأثر بالعناصر العربية المتسرّبة اليها من الشرق والشرق الجنوبي. وكان ان العرب القدماء تكاثروا في تلك المنطقة فأنشأوا لهم دولة قوية في بترا او صُلَع عُرفت

---

١) راجع حبيب زيّات: المجازفة بالارقام في التاريخ. المشرق (٣١ [١٩٣٣] ١٦١).

٢) H. Lammens, *La Syrie*, I, 56

بالدولة النبطية ، كما انشأوا دولة اخرى في تدمر بلغت أوجها على عهد زينب الزبأء. ومن العرب المهاجرين النازلين في الاراضي الشاميّة نذكر الغساسنة ، عمّال البيزنطيين على خفارة الحدود[1]. الّا ان هؤلاء ظلّوا اعلق بالبداوة من النبطيين والتدمريين . وهكذا القول عن سائر القبائل العربية النازلة هذه البلاد بعد الغساسنة ، فانها على تحضّرها بعض التحضُّر، وتأثّرها بالبيئة الشاميّة، ظلّت اقرب الى العروبة الخالصة من ارباب بترا او امراء تدمر . نرى ذلك في مظاهر الحياة الاجتماعية ، ولا سيما اللغة . فان لغة النبطيين والتدمريين كانت من اللهجات الآرامية[2] . اما لغة الغساسنة ومن اليهم من القبائل الضاربة في بلاد الشام فقد كانت العربية . ولكنها عربية بعيدة عن لسان قريش الصافي بسبب ما كان فيها من المفردات والتراكيب الآرامية ، والآرامية لغة الغساسنة الطقسية ، وهم من اليعاقبة كما لا يخفى. وهذا الاختلاط في اللغة مما يوضح انه لم يقم شاعر واحد من عرب الشام قبل الإسلام. حتى كان الغساسنة اذا ما اهتزّوا لسماع المدائح العربية اتاهم الشعراء من نجد والحجاز واليمامة فتبارى في منازلهم حسّان والاعشى والنابغة وحدهم ، لا يقوم شاعر واحد من غسّان فينافسهم . . .

والى جنب هذه العربية المشوبة ، القليلة الانتشار في بلاد الشام ، كانت المناطق السورية باكثرها تتكلّم اللغة الآرامية التي اوصلها الموارنة حتى الى جبال لبنان ، فاصبحت لغة الشعب الجارية في معاملاته ومرافقه المدنية ، وفي القيام بشعائره الدينية ، من الشمال الى الجنوب ، من انطاكية الى اورشليم فغزّة . وكانت اليونانية لغة رجال الثقافة وسراة القوم وارباب المصالح العامة . واللاتينية لغة الجيش والمحاكم .

ثم ان هؤلاء العرب نصف المتحضرين في اطراف الشام لم يكونوا على صلة

١) راجع، في ما تقدّم، الاب لامنس: سورية في زمن الفتح العربي. المشرق (٣٠ [١٩٣٢] ١٠-١٦)

٢) وللاستاذ كانتينو الابحاث القيّمة في لغة التدمريّين، راجع خاصّة :
J. Cantineau, *Le dialecte arabe de Palmyre*, Beyrouth, 1934.
- *Nabatéen et Arabe*, Paris, 1935.

احترام بعرب الحجاز، وهم يدعونهم «حَرَشَة الضباب وأَكَلَة اليرابيع»، كما ان الحجازيين كانوا يبادلونهم هذا الاحتقار فيزدرون المتحضرين «ويتشاءمون» حتى بالريح الهامّة عليهم من «الشام». وكثيرًا ما خلط شعراؤهم بين سكان سورية الاصليين، ورجال حكومتها من البيزنطيين، فجمعوهم كلّهم بلقب «الروم»، واطلقوا على المقاطعات الشامية اسم «بلاد الروم». ومن اوضح الادلّة على دحض نظرية دي گويه (de Goeje) ان معظم الجيش البيزنطي الذي حارب غزاة العرب في اجنادين واليرموك كان من عرب الشام النازلين في تلك النواحي الشرقية - الجنوبية، على نحو ما قدّمنا.

ولا بدّ، في ذكر سكان سورية زمن الفتح العربي، من الإشارة الى السامريين المنكمشين على انفسهم في منطقة «السامرة» من فلسطين. وقد كانوا وافري العدد اذ ذاك حتى استُنتج من اقوال بعض المؤرخين انهم بلغوا نصف مليون[1]. وليس بثبت. ومهما يكن من أمر فانهم كانوا يفوقون اليهود عددًا ومنعةً. واما هؤلاء، فكانوا يقيمون خاصّةً في بلاد الجليل. وهناك، في شمال سورية، كانت تعيش طائفة من المانوية، قد يكون يزيديو عصرنا من بقاياهم.

واذا استثنينا اليهود والسامريين والمانويين، رأينا جميع سكان البلاد الشامية من النصارى. الّا انها نصرانية منقسمة طوائفها بعضها على بعض، متفرّعة في اكثرها عن بدع القرن الخامس. وكان اكثر هذه الطوائف عددًا الارثوذكس او الملكيّة، ظلّوا على هذا التفوّق حتى عهد الامبراطور هرقل، فأخذ شأنهم يتضاءل، لأن الامبراطور المذكور كان يقول بالمشيئة الواحدة ويتعصّب لها. فعزّز البدعة المونوتيليّة. واذا بطائفة جديدة تدخل المعركة مع ما كان من نساطرة، ويعاقبة، وملكية، وموارنة. فتزداد المشاحنات الدينية، وتبلغ الى اعماق الشعب، مبلبلةً الافكار من ادنى طبقات السوقة حتى الامبراطور نفسه — وقد كان غائصاً في أدقّ المناظرات اللاهوتيّة عندما كان قوّاده يندحرون امام العرب —

---

١) راجع الاب لامنس: سورية في زمن الفتح العربي (المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ١٥)

متجاوزةً المجادلات الكلامية الى الاخذ بانواع الاضطهاد الجائر . مما اضطرّ الموارنة الى ترك السهول الخصبة والاعتصام بجبال لبنان المنيعة. وعلى هذا النوع كانت المشاحنات الدينية بين اليهود والسامريين.

هذه حالة الشعوب المختلفة في البلاد الشامية ، قُبيل الفتح العربي ، فكيف كانت حالة المسلّطين عليها ، اي البيزنطيين ارباب الجيش والحكومة ؟ وكيف كانت علاقة الشعب برجال حكومته ؟

خلاصة ما يُستنتج من الدروس التاريخية الصحيحة ان بيزنطية عملت على تنفير الشعب منها ، إمّا بالاضطهاد الديني الذي اثاره هرقل على اليهود اولًا ، ثم على جميع النصارى المنتمين الى غير نِحلته ؛ وإمّا بارهاق المكلّفين بالضرائب التي احتاجت اليها الدولة في حروبها المتواصلة مع الفرس.

اما الجيش فلم يبقَ له من الجيش الروماني القديم الّا الاسم[1]. رجاله من المرتزقة لا يحمون تغرًا بدافع وطني ، ولا يتحمّلون وقعةً باخلاص ، وإطاره مضطرب التنظيم ، وقوّاده من المستهترين بشأن العرب ، وقد تعوّدوا مثل غزواتهم في ما سبق ، يقومون بها على اطراف الشام فيستاقون بعض المواشي ويرجعون الى بلادهم . حتى اصبحت تلك الغارات ، في عرف قوّاد الجيش ، من « حوادث الحدود » البسيطة . فلم يهتمّوا بها ، هذه المرّة ، الا بعد فوات الحين ، وقد تحققوا ان المغيرين لم يرجعوا ، على عادتهم ، بالأسلاب الى بلادهم . بل اقاموا في المناطق البيزنطية اذ لم يخرجهم منها احد ، بل توغّلوا فيها اذ لم تصدّهم عنها حامية .

هذه المقدّمات المقتضبة كانت ضروريةً لفهم ذاك الاتفاق السريع الذي حصل بين العرب الداخلين وابناء الشام ، وأكثرهم نصارى ، فلم يروا في الفاتحين اعداء ، ولا غزاة . انما رأوا فيهم اولًا ـ لا « اخوانًا » مخلّصين كما وهم دي غويه ـ بل مريحين من دولة شديدة الوطأة اقترتهم بضرائبها وضايقتهم بشاحناتها الدينية .

***

وكان ما كان من دخول العرب دمشق وسائر المدن الشامية على ما هو

---

١) راجع ، في هذا البحث ، الاب لامنس : فتح العرب سورية والجيش البيزنطي (المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ٢٣٢–٢٤٧)

مشهور. بيد ان هناك حادثة لا بأس بالتعرّض لها بشيء من التمحيص. هي رواية فكهة تناقلها المؤرخون الشرقيون، حتى بعض المعاصرين منهم، بفضل ابن عساكر، وتناقلها بعض الغربيين بفضل فون كرِيمر (von Kremer)، وهي القائلة بان خالد بن الوليد دخل مدينة دمشق عنوةً من الباب الشرقي، وابا عبيدة دخلها صلحاً من باب الجابية، فالتقيا في وسط كنيسة القديس يوحنا، فقُسمت الكنيسة بين المسلمين والنصارى (كذا!)

قد يختلف الإخباريون في ذكر الباب المدخول صلحاً او عنوةً، وقد يختلفون كذلك في ذكر القائد الداخل أكان خالداً ام ابا عبيدة. ولكنهم مجمعون على «الصلح والعنوة» وعلى التقاء القائدين، إما في وسط المدينة او في وسط الكنيسة، وهو الأشهر...

قلنا: أوَ ليس في ضعف التصوّر باختراع هذه الحكاية ما يربأ بالمؤرخين ان يرددوها، ولا سيما في عصرنا وقد نُشرت الوثائق والاسانيد القديمة جميعها تقريباً فاستنتج منها الاختصاصيون ما كان يخفى على الإخباريين والمتطرّفين بالتاريخ! أو لا نرى هنا أثر النزعة المدنية التي ترمي الى إشراك ابي عبيدة في هذا الفتح المهمّ في الاسلام! وهي التي رمت فعلاً، في ما بعد، الى وضعه موضع خالد، عندما تولّى الخلافة عمر بن الخطّاب، فكان اول ما عمله ان عزل خالداً وعيّن صديقه ابا عبيدة مكانه. ولقد كان في خطة الثلاثة: ابي بكر، وعمر، وابي عبيدة ان يخلف هذا الأخير عمر كما خلف عمر ابا بكر، لولا ما كان من طاعون عمواس! ولنا في ما نشره البرنس كايتاني في التاريخ الاسلامي القديم، من شهادات مؤرّخي العرب، واكثرهم من ذوي النزعة المدنية، الى اقوال مؤرخي الفرس والسريان والروم، ما يؤيّد دحضنا للاسطورة المتقدّمة الذكر. ومنه يستخلص انه لما فُتحت دمشق، لأول مرّة، في ايلول ٦٣٥، كان ابو عبيدة بعيداً عنها، وهو لم يأتِ الشام الّا في السنة التالية[1].

١) راجع فصل كايتاني المعنون *La Campagna araba in Siria durante gli anni 14 h. e 15 h. : il problema dei due assedi di Damasco.* في L. Caetani, *Annali dell'Islam*, III, pp. 326-402

اما الغاية من هذه الاسطورة فقد تكون تبريرًا متأخرًا لما قام به الوليد بن عبد الملك من نزع كنيسة القديس يوحنا وتحويلها الى الجامع. وذلك ان قسمة الكنيسة بين المسلمين والنصارى اصبحت، في نظر النقد الحديث، من الروايات المشكوك فيها، ان لم نقل من الاساطير المفروغ منها[1]. وقد يكون المؤرخون خلطوا سهوًا بين فتحي دمشق: الاول على يد خالد ويزيد بن ابي سفيان في ايلول ٦٣٥، والثاني على يد ابي عبيدة في كانون الاول ٦٣٦، فجعلوا هذا الى جنب خالد وبينهما اربعة عشر شهرًا.

بيد ان ما يهمنا خاصة في هذا البحث هو ان نعرف مَن قام بالمفاوضات بين اهل الشام والجيش العربي. ونحن نجهل مَن كان حاكم المدينة بعد ان رحلت عنها الحامية البيزنطية.

يقول البلاذري ان القائم بالمفاوضات كان اسقف دمشق، ولا يذكر اسمه. ويقول سيف بن عمر ان اسمه نسطاس. ويقول اوطيخوس، المؤرخ البيزنطي، ان الذي قام بالمفاوضات، « فخان المدينة والامبراطورية »، انما هو منصور بن سرجون، عامل هرقل.

ومنصور بن سرجون اسم اشتهر على عهد البيزنطيين، وسيشتهر مدة على عهد الامويين، حتى يشتهر طويلًا في تاريخ الكنيسة بشخص حفيده، القديس يوحنا الدمشقي.

كان منصور مديرًا لمالية دمشق منذ اواخر عهد الامبراطور موريقي، اي من اواخر القرن السادس. على ان ولاية دمشق لم تكن تشمل سورية بكاملها، انما كانت محصورة بما دُعي فنيقية اللبنانية. فلما اخلى الجيش البيزنطي دمشق،

كان منصور مديرًا لمالية دمشق منذ اواخر عهد الامبراطور موريقي، اي

فليست غريبة من اوطيخوس المنتمي الى غير نحلته ، والمؤرّخ الحوادث من الجهة البزنطية .

واذا ترفعنا من هـذه النزعات الحزبية نرى ان منصورًا برهن عن حبّ وإخلاص لأهل مدينته اذ فاوض العرب ، مستعيناً باطلاعه الواسع على لغتهم وعاداتهم ، وبمعرفته لرغائب بني نوعه . فاظهر مقدرةً عجيبة في تحقيق شروط التسليم حتى كأنه كان هو الذي يفرض الشروط على الفاتحين. فنال العهود بان العرب يخلون كل ما للدماشقة من ارزاق وبيوت ، ويحترمون عقائدهم الدينية وعاداتهم وكنائسهم وشعائرهم ، مكتفين بجزية قليلة .

ولا شك انه في تلك الأثناء ، واجه ، للمرة الاولى ، القائد يزيد بن ابي سفيان ، اخا معاوية . ومن الراجح ان المفاوضة كانت مع يزيد ، لا مع خالد ، وذلك انه يُستنتج من بعض روايات البلاذري ان يزيد سبق خالدًا الى دخول دمشق فالتقيا بالمقسلاط[1] . وقد لا نخطئ الواقع اذا قلنا ان مهارة منصور وبلاغته ، ولا سيا خبرته بالشؤون المالية أثّرت في يزيد كل التأثير . ولا يخفى ان يزيد من افراد تلك الأسرة المالية الكبرى التي انبتت ابا سفيان ، أشهر من يُذكر بين الرأسماليين وارباب القوافل العظيمة في مكة . فكان ان يزيد لم يُعين والياً على دمشق حتى سلّم منصورًا ادارة الاموال .

ثم حدث ان هرقل جمع جيشاً جديدًا فتراجع العرب عن دمشق مدةً . وعادوا الى حصارها ثانيةً بقيادة ابي عبيدة . حتى فتحت المدينة ابوابها في كانون الاول ٦٣٦ . وكان في شروط الصلح ان المسلمين يتركون للنصارى خمس عشرة كنيسة ضمن الأسوار .

وظلّ ابو عبيدة على قيادة الجيش حتى طاعون عمواس . فكان من اولى ضحاياه . فعيّن عمر مكانه يزيد بن ابي سفيان ، الذي شاء مؤرّخو العباسيين ان يجحدوا ذكره ، على ما ابداه من بلاء في الفتوح الشامية . وعيّن مكان يزيد على ولاية الشام اخاه معاوية . وولاية الشام اذ ذاك مقسومة الى كور او مقاطعات تسمّى

---

١) البلاذري : الكتاب المذكور ، ١٢٤

الواحدة منها «جنداً». فكان هناك جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، ويذكر بعضهم جند الاردن. ولم تكن دمشق عاصمة هذه الولاية، انما كانت العاصمة العسكرية الجابية في الجولان، من قرى الغساسنة القديمة. يقيم فيها الحاكم العام جامعاً بين يديه السلطات كلها من تشريعية وتنفيذية وعسكرية. وله نواب عسكريون في المدن السابقة الذكر، يراقبون عن كثب سير الاعمال الحكومية، وقد تركوها، على الغالب، في ايدي اربابها من اهل البلاد النصارى، كما كانت على عهد البيزنطيين. فلم يمسّوا بشيء النظام القضائي ولا المؤسسات البلدية الخاصة. فظلّ للوطنيين لغتهم، ودينهم، ومحاكمهم، و «احوالهم الشخصية»، كما نقول اليوم، وعاداتهم وتقاليدهم. وظلّوا يديرون بلادهم بأنفسهم فينظّمون شرطتهم، ويقومون بمشاريع الريّ، وبناء الجسور، وفتح الطرق؛ والخلاصة أنهم ظلّوا مستقلّين ادارةً داخلية عن الجيش الداخل[1]. حتى ان الفاتحين لم يهتمّوا بفئة جديدة من الشعب نشأت من هذه الحالة الجديدة. وهي فئة الموالي، اي المسلمين من غير العرب، فلم يعرفوا ايّ شريعة يطبّقون عليها، وقد خرجت عن احكام النصارى، سكّان البلاد، ولم تحصل على المساواة التامّة بالعرب المسلمين. وهكذا ظلّ الموالي مدةً حائرين.

ولم يكن همّ الفاتحين، اول الأمر، الّا الادارة المالية، لكثرة ما كانوا يحتاجون اليه من المال في الحروب المتتابعة. كان عليهم القيام بهذه الحروب. وكان على سكّان الشام القيام بتغذيتهم. ولهذا فرضوا، فوق الخراج، وهو الضريبة على العقار، ضريبةً اخرى على الأعناق كانت في اصلها ديناراً على كل بالغ او، في لغة ذاك العصر، «على كل من جرت عليه المواسي». ثم ضوعفت هذه الضريبة على متوسطي الحال، ورُبعت على الاغنيا.[2]. اما تنظيم فرض الضرائب فكان على اساس ملكية الاراضي ابّان الفتح، وعلى اساس عدد الذمّيين. وعليه فلا نستغرب ان نرى الجباة يتذمّرون احياناً اذ يرون بعض

١) قابل بما في Lammens, *La Syrie*, I, 61-62

٢) راجع في «الجزية» و«الخراج» بحثين للاستاذ بندلي جوزي في «المقتطف» ايار ١٩٣١، و«الكلية» تشرين الثاني ١٩٣١

الذمّيين يجنحون الى الاسلام فيتخلّصون من اداء الضرائب ، وبالتالي تضطرب موازنة اولئك الجباة ، فترهقهم الادارة المركزية . حتى شكوا الأمر الى الخليفة . فكتب عبد الملك الى عمّاله يأمرهم بان يتلافوا النقص في عدد الذميين ، وان اضطرّهم الأمر الى منعهم عن الإسلام . وكذلك كان فعل يزيد الثالث . فأين هذا من القول السائر في كتب بعض المؤرخين من ان العرب اجبروا أهل الشام على الديانة بالاسلام !

* * *

في السنة ٦٣٩ تسلّم معاوية ولاية الشام . وكأنّه رأى بثاقب بصره ان مستقبل الدولة الجديدة سيكون متّجهاً الى الشمال والى الغرب ، فانتقل من الجابية الى دمشق . وهمّه امران : تحضير البدو ، ومقاومة بيزنطية . ومعاونوه في هذين الأمرين النصارى : عرباً كانوا او غير عرب .

اما تحضير البدو فنجح فيه بعض النجاح ، على صعوبته . نتحقق ذلك اذ نرى ان المعسكرات الاصلية في الجابية ، وعمواس ، ودابق ، لم تلبث ان اقفرت ، وانتقلت مراكز الحكم الى المدن كدمشق ، وحمص ، وغيرهما . بيد ان العمل كان صعباً ، كما قدّمنا ، لأن البدو نافرون فطرياً من حياة الحضر . لا يجدون فرصةً للرجوع الى براديهم الّا اغتنموها . ولا عجب . فان اموراً كثيرة كانت تحول بينهم وبين الحياة الجديـدة : عاداتهم القبيلية تغاير هذه العادات الحضرية . مناخ بلادهم الحارّ الجافّ يختلف عن مناخ الشام ، ولا سيما دمشق ، بما فيه من رطوبة ناشئة عن المياه الغزيرة . وكان هذا المناخ الرطب يؤثر في اجسامهم المعوّدة الجفاف فيحدث فيها بثوراً ودماميل حتى اصبح عندهم من الأمثال الجارية القول عن « دماميل الشام وطواعين الجزيرة » . وكان الجنود ، حتى في اواسط العهد الاموي ، وقد عُوّدوا الاقامة في ثكنات المدن ، اذا ما اراد القائد مكافأتهم على عمل مذكور ، سألوه الاذن بالرجوع الى باديتهم . وحتى رأينا امرأة معاوية نفسها ، ميسون الكلبية ، على الرغم من حياتها المحفوفة باليسر والهناء في البلاط الملكي ، تحنّ الى حياتها البدوية ، فتنشد تلك الابيات المشهورة :

وبيت تخفق الارياح فيه   أحبُّ اليَّ من قصرٍ منيف !
ولبس عباءة ، وتقرَّ عيني ،   أحبُّ اليَّ من لبس الشفوف !
واكل كسيرة في كسر بيتي   أحبُّ اليَّ من اكل الرغيف !
واصوات الرياح بكل فجٍّ   احبُّ اليَّ من نقر الدفوف !
وكلبٌ ينبحُ الطرَّاقَ دوني   احبُّ اليَّ من قطٍّ أَلوف !
وبكرٌ يتبع الأظعان صعبٌ   احبُّ اليَّ من بغلٍ زفوف !
وخرقٌ من بني عمي نحيفٌ   احبُّ اليَّ من علجٍ عنيف !

ولنشر حالًا الى ان هذا البيت الأخير غير وارد في الروايات القديمة لابيات ميسون[1]. أَوَ تكون الرقابة العبَّاسية عملت عملها حتى في هذا الشعر ، فنعتت معاوية « بالعلج العنيف » ! !

ومهما يكن من أمر فان معاوية استعان في مشروعه العظيم هـذا ، اي تحضير البدو ، بقبيلة ميسون نفسها ، وهي نصرانية ، وبسائر القبائل النصرانية العائشة في اطراف الشام عيشة وسطًا بين البدو والحضر ، والتي كانت قد حالفت الغساسنة في ما سبق ، وتعوَّدت النظام العسكري على عهد البيزنطيين ، كبني تغلب ، وبني جُذام ، وبني كلب وما تفرَّع عنها من البطون والعشائر . فاتكل عليهم ، وجعلهم قوَّاد جنده يعلّمون البدو « طاعة اهل الشام » التي كثيرًا ما يذكرها فيمدحها مؤرخو العرب كالبلاذري والطبري ، والتي لم تكن معروفة في تلك الشراذم القادمة من الحجاز .

وهكذا عمل النصارى العرب على تنظيم الجيش ، مادَّة القتال ، فمكَّنوا معاوية من ان يرمي بنظره الى أبعد مما تصوَّره الخلفاء الراشدون ، الى ناحية المدنية الغربيَّة ، الى تلك الامبراطورية العظيمة التي كانت تقوم حاجزًا هائلًا بين الدولة الجديدة والاتساع ، الى بيزنطية . رمى بنظره الى تلك الامبراطورية فطمع فيها . ولكن كيف حقَّق بعض مطامعه ؟ وكيف توصَّل وهو لا يزال واليًا ، الى خلق حكومة اصبحت مثالًا للحكومات ؟ ذلك ما نفهمه اذا ذكرنا ما قام به النصارى من غير العرب .

كان قد خلا الجوّ لمعاوية بوفاة ابي عبيدة وخالد بن الوليد وغيرهما من

---

١) اطلب Lammens, *Moʿâwia*, 313

القوّاد ، وبرحيل عمرو بن العاص الى مصر ، وبمقتل عمر بن الخطّاب ، وبارتقاء نسيبه عثمان عرش الخلافة ، فشعر بالاستقلال اللامركزي . ولفطنة في نفسه ، ادرك ان ابناء الشام اقدر من البدو في ادارة الدواوين ولا سيما المالية منها . فوالاهم ومنحهم ثقته تامّة ، تاركاً لهم حريّاتهم الدينية والمدنية المطلقة. فكان أنهم تحققوا تساهل الفاتحين ، ورأوا انفسهم لا يزالون على رأس الاعمال في بلادهم. فتابعوا مساعيهم في سبيل ازدهار الوطن . وكان في مقدّمتهم ذاك المالي القدير الذي رأيناه يضبط مالية دمشق ، بل ولاية الشام ، على عهد البيزنطيين ، ثم على عهد الفرس ، ثم على عهد البيزنطيين من جديد ؛ والذي شاهدناه يفاوض يزيد بن ابي سفيان على فتح دمشق فينتزع لها من الفاتحين شروطاً كانت كلّها في مصلحة ابناء وطنه . فيقرّه يزيد في ادارته . ويثبّته معاوية . فيصبح مدير المالية في الولاية كلّها ، حتى يُصبح ، بعد ذلك ، مديراً او وزيراً لمالية الدولة جمعاء . وهو لا يزال على نصرانيّته ، بل على تعلّقه بالنصرانية ، تعلّقاً حمل المؤرّخ تيوفانس على ان يسمّيه « الرجل المسيحي كل المسيحي » ، تعلّقاً تجاوزه الى افراد اسرته فنبغ من حفدته القديس يوحنا الدمشقي ، عنينا به منصور بن سرجون .

القى معاوية بين يديه بمقدّرات الدولة المالية ، فادارها خيرَ ادارة ، منظّماً الموازنة ، ساهراً على جباية الضرائب ، محافظاً على الاموال ، دافعاً الرواتب في حينها ، منتبهاً لجميع الاعمال الاقتصادية.

وكان من الطبيعي ان يسهر على تنظيم اعمال الموظّفين . ومنهم الجيش الدائم فاخذ يهتمّ بتأمين معيشته اولاً ، ثم بتموينه بالمعدّات والذخائر ؛ ثم بتنظيم حركاته وغزواته . وهكذا اصبح ذاك الشيخ المسيحي مدير المالية والحربية ؛ وسيُصبح وزيرهما في تلك الدولة الإسلامية العظمى.

ولم يكن منصور النصرانيّ الوحيد بين ارباب الدولة . انما ذكرناه لشهرته ولاهمية ما كان يتولّاه من اعمال . وهناك كثيرون غيره من كبار الموظّفين واصحاب النفوذ في البلاط الاموي ، كالطبيب ابن أثال ، صاحب خراج حمص ، على عهد معاوية ؛ « وكان اركوناً من اراكنة النصارى عظيماً » على ما في قول

ابن عساكر[١] . والراهب ماريانوس مؤدّب خالد بن يزيد ، ويجدل الكلبي عم معاوية ، والشاعر الأخطل ، وغيرهم.

وقد جرى رجال الدولة الاموية على خطة معاوية في تكليف النصارى القيام باهمّ دوائر الحكومة. فرأينا والي المدينة ، مروان بن الحكم ، يؤلّف شرطة أيلة من مائتي نصراني[٢]. واذا انتبهنا لاهمية هذا المرفأ على البحر الأحمر ادركنا مبلغ تلك الثقة التي وضعها مروان في النصارى. وكذلك القول عن الوليد بن عقبة ، اذ عهد بادارة سجون الكوفة الى رجل نصراني[٣]. وعرف الوليد بصداقته للشاعر النصراني ابي زُبيد ، وقد اقطعه بيتاً مجاوراً للجامع . فكان الشاعر ، اذا اراد زيارة صديقه ، بل « اخيه » كما كان يدعوه[٤] ، مرّ في الجامع قاصداً اليه[٥].

* * *

ومن النصارى مَن عاون معاوية في تحقيق مشاريعه الحربية ، وهم غير من ذكرنا من ابناء القبائل النصرانية ، معلّمي البدو « طاعة اهل الشام » . هم اللبنانيون ، سكّان السواحل والجبال.

اصبح معاوية بمأمن من هجمات بيزنطية البرّية . فبقي عليه ان يتلافى هذه الغزوات من جهة البحر . وادرك انه ما دام المتوسّط مسرحاً للاسطول الرومي فلا سبيل الى الطمأنينة والهدوء في بلاد الشام.

فكيف العمل ، والجيش العربي ليس ببحّار ؟ والبدو ينفرون من البحر ، قائلين بلسان شاعرهم:

طينٌ انا ، وهو ماءٌ ، والطين في الماء ذائب !

اجال معاوية بصره. واذا هناك على الساحل ثغور شهيرة كانت في ما مضى قد استعمرت العالم المتمدّن بسفنها الجبّارة . اذا هناك حفدة الفنيقيين بناة اساطيل صور ، وصيدون ، وأراد ، وقرطاجة ؛ بل بناة سفينة نوح على قول ارباب

---

١) ابن عساكر : التاريخ الكبير (طبعة بدران ، دمشق ١٣٣٢) ٥ : ٨٠
٢) الاغاني ٤ : ١٥٤
٣) الاغاني ٤ : ١٥٦
٤) الاغاني ١١ : ٢٨
٥) الاغاني ٤ : ١٨١-١٨٣

الاساطير العربية[1]

وسرعان ما صمّم معاوية على بناء الاسطول العربي. فعهد الى اهل عكا، وصور، وطرابلس، كما يقول البلاذري؛ فقطعوا الخشب من غابات لبنان، وبنوا السفن. ولا ضرورة الى القول ان قوّادها وملّاحيها كانوا من اللبنانيين وكلّهم نصارى، اذ ذاك. اما المقاتلون فكانوا من الجيش السوري. وقد شاء معاوية ان يشجّع عسكره على مجابهة خطر البحر، فركب هو وامرأته كَثْوَة في اول السفن، شأنَ رؤساء الحكومات في عصرنا اذا ما ارادوا الاحتفال بانزال باخرة الى البحر. وهكذا كان تدشين اول اسطول اموي بناه معاوية، وهو لا يزال واليًا.

وسار الاسطول اللبناني بسفنه وقوّاده وملّاحيه، العربي بمقاتلته، في ارجاء البحر المتوسّط. فاحتلّ قبرس اولًا سنة ٦٤٩، ومعاوية وامرأته على متن احدى سفنه[2]. ثم احتلّ رودس سنة ٦٥٤. فقلقت بيزنطية، وجهّزت اسطولها بقيادة الامبراطور كونستان الثاني نفسه. فاتحد الاسطول اللبناني والاسطول المصري — وقوّاد هذا من النصارى ايضًا، وكذلك ملّاحوه — والتقيا بالاسطول البيزنطي في شاطىء ليدية. وما هو ان احتدمت المعركة حتى قال التاريخ: على الاسطول الرومي السلام!.

الّا ان هذا الازدهار العجيب في البرّ والبحر، وهذا التقدّم السريع في ولاية معاوية، اصطدما بعقبة هائلة في تواريخ الامم هي عقبة الحروب الأهلية.

وكان ما هو مشهور بين علي ومعاوية من وقائع اسفرت عن انتصار الوالي الاموي، فمن ارتقائه عرش الخلافة.

وقد اختار معاوية اورشليم، المدينة المقدّسة، لقبول البيعة. فاجتمع فيها جنده وبايعوه، بعد ان ذهب فصلّى في معابد المسيحيين التاريخية، كما ذكر احد مؤرخي السريان في قطعة نشرها نولدكه جاء فيها:

« في السنة ٩٧١ للسلوقيين (وهي التي ابتدأت سنة ٦٦٠) اجتمع في اورشليم

---

١) اطلب ياقوت: معجم البلدان (Wüstenfeld) ٢: ٥٨٨.

٢) وقد توفيت امرأته هناك. (الطبري: تاريخ الرسل والملوك (de Goeje) ٢: ٢٠٥)

عدد كبير من العرب والامراء ليتخبوا معاوية ملكاً . فصعد هذا الامير الى الجلجلة. ثم ذهب الى جتسماني، والى قبر العذراء مريم ، فصلى من جديد... ثم جعل مقرّ عرشه دمشق ، ولم يشأ ان ينتقل الى مقام محمد»[1] (اي المدينة).

وجرى ، في خلافته ، على سياسته الاولى ، فاستند الى ابناء البلاد ، ولا سيما النصارى منهم، وهم الاكثرية الساحقة ، مظهرًا تساهلًا عجيبًا. حتى كان بلاطه مسرحاً لزعماء النصارى وكبارهم ، ذكرنا منهم ابناء سرجون ، وعمه بجدل الكلبي ، والد ميسون ، وطبيبه ابن أثال ، والاخطل رفيق ابنه يزيد ، والراهب ماريانوس مؤدّب حفيده خالد.

ومما يدلّ على تساهله ومساعدته للنصارى ما ذكره تيوفانس من ان احدى الزلازل هدمت كنيسة الرها الكبرى . فانفق معاوية من ماله الخاصّ في اعادة بنائها[2] . وكذلك ارتياحه الى وجود ابنه يزيد في صحبة ابن سرجون الذي سيصبح ، في ما بعد ، القديس يوحنا الدمشقي ، وفي صحبة الاخطل ، وصرفه اياه عن معاشرة المتقين من اهل الحجاز ؛ وكذلك رضاه بان يربّي يزيد ابنه خالدًا تربية نصرانية على يد الراهب ماريانوس.

ومن هذا القبيل ما ذكره ابن قتيبة من ان معاوية كان يُصاب بالأرق في آخر حياته ، فلا يناله النوم الّا قبيل الصبح . وكان الى جنب قصره ، قصر الخضراء بدمشق ، كاتدرائية القديس يوحنا تقرع نواقيسها عند الصباح ، وقت نوم الخليفة فتوقظه وتؤذيه . فاحتمل معاوية هذا اذ لم يرَ لنفسه الحقّ بمنع النصارى قرع نواقيسهم. ولكنه لجأ الى حيلة ظنّها تكفيه مؤونة الألم والأرق. فلما لم تنجح الحيلة صرف النظر عن هذا الأمر.

على هذه السياسة الرحبة جرى يزيد . فكان يستعين بالنصارى في الادارة وفي الحرب ايضاً. وها انه يُرسل جيشاً من نصارى تغلب الى الحجاز لقمع ثورة ابن الزبير. واذا بالتغلبيين يمشون ، وامامهم الصليب مرتفعاً وراية مار سرجيس

١) راجع Lammens, *La Syrie*, I, 67

٢) *Corp. script. Orient.*, série III, XIV, 288.Cf. Tritton, *Naṣārū*, dans *Encycl. de l'Islam*, III, 907.

شفيعهم ، على ما يقول الأخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومار سرجيس ، ونُسًا ناقعا . .

حتى يدخلوا المدينة بقيادة مُسلم بن عُقبة . ثم يمشون على مكة يحاصرونها .

وكان من مكافأة يزيد للنصارى ، في اخلاصهم للدولة ، ان رفع عنهم كثيرًا من الضرائب . واعاد الى مسيحيي نجران حقوقهم في بلاد العرب ، بعد ان كان قد طردهم ظلماً عمر بن الخطّاب .

وقد انقذ النصارى التغلبيون الدولة الاموية مرّةً ثانية ، على عهد عبد الملك ابن مروان ، عندما ثار العراق على الخلافة متضامناً والحجاز ، وتحفّزت خراسان للوثوب . فاضطربت الدولة على قواعدها . وانتقل عبد الملك برجاله من دمشق الى بُطنان ، في منطقة حلب ، وسيّر التغلبيين الى الجزيرة ، فكسروا عرب العراق ، وسحقوا بني سُلَيم ، وقتلوا زعيمهم -عُمير بن الحُباب ، وحملوا رأسه الى الشام ؛ كما يفتخر الأخطل — وحقّ له الفخر ! — مخاطباً عبد الملك من ابيات رائعة في « خفّ القطين » :

وقد نُصرتَ ، امير المؤمنين ، بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخَبرُ :
يعرّفونك رأس ابن الحُباب ، وقد اضحى وللسيف في خيشومه أثرُ ؛
لا يسمع الصوت مستكاً مسامعه ، وليس ينطق حتى ينطق الحجرُ ؛
أمسى الى جانب الحشّاك جيفته ، ورأسه دون اليحموم والصُوَرُ !

* * *

هذه امثلة قليلة من اعمال النصارى في سبيل الدولة الأموية ، ظهرت في مجال السياسة ، والادارة ، والحرب .

وهناك اعمالهم في مجال الشعر ، والعلم ، والمنطق . ويكفي باسماء الأخطل ، وابن أثال ، وماريانوس شاهدًا مقنعاً . ولا بدّ من اشارة خاصّة الى الأخطل ، وهو اعظم صحافيي ذلك العصر . نصر الأمويين بلسانه كما نصرهم قومه النصارى بجيوشهم . ولا نبالغ اذا قلنا ان قصائده عملت في نشر مآثر الامويين ، واعلان جدارتهم بحسن الادارة وضبط شؤون الملك :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم ، وأعظم الناس احلاماً اذا قدروا ؛

وفي تهيئة افكار الجمهور للاقرار بحقّهم الالهي :

ويومَ صفّين ، والابصار خاشعةٌ ، أمدّهم ، اذ دعوا ، من ربّهم مددُ ؟

ما لا تعمله جريدة حكومية مهما يُنفق عليها من اموال الاعتمادات السرّية.

ولم يكن الشاعر النصراني الوحيد ، او الجريدة النصرانية الوحيدة ، من الحزب الاموي. وهناك نابغة بني شيبان. وقف موقفاً في مجلس عبد الملك لا يفرق في شيء، عن موقف مسكين الدارمي في مجلس معاوية عندما شاء مبايعة ابنه يزيد.

كان عبدالملك، في آخر ايامه، يرمي الى خلع اخيه عبدالعزيز عن ولاية العهد، والمبايعة بها لابنه الوليد. ولكنه كان يخشى نفور العرب. والعرب لم يألفوا الحكم الوراثي ، على رغم ما بذله معاوية من جهود موفقة. فجمع عبد الملك المجلس. وكان قد اشار الى النابغة بالقاء اقتراح يسبر فيه افكار القوم فقال النابغة:

آليت جهدًا ، وصادقٌ قسمي ، لربِّ عبدٍ بالله ينتصحُ ،
يظلّ يتلو الانجيل يدرسه ، من خشية الله قلبه طفحُ :
لَابنُك اولى بملك والده ! ونجم من قد عصاك مُطّرَحُ !
داودُ عدلٌ فاحكم بسيرته ، ثم ابن حرب ، فانهم نصحوا !
وهم خيارٌ فاعمل بسُنّتهم ، واحيِ بخيرٍ، واكدح كما كدحوا !

فابتسم عبد الملك ، ولم يعترض احد من الاعضاء. فنوى الخليفة انفاذ المشروع ، الّا ان موت اخيه عبد العزيز خلّصه من تبعة النقض والنكث.

اما في سبيل الفنّ ، فلنا ، كل مدّة ، من اعمال الأثريات ، برهان جديد على ازدهار الفنّ المحلّي وعلى نبوغ فناني النصارى في سورية على العهد الاموي. من هذه الآثار ما كان دينيًا محضاً فلم يؤثر مباشرةً في اقرار الدولة الاموية. ومنها مـا قام به اربابه في تحقيق مشاريع الخلافة ، كبناء الجامع الاقصى في اورشليم لعبد الملك بن مروان ، وبناء الجامع الاموي في دمشق لابنه الوليد ، وبناء قصر الحير في بادية تدمر لهشام ، وبناء قصر المشتى في بادية موآب للوليد بن يزيد بن عبد الملك. وليس من موضوعنا الآن ان نتبسّط في درس هذه الآثار.

انما نستخرج من مظاهر هذا الازدهار المتنوّعة ان حياة النصارى على عهد الدولة الاموية — بل على عهد خلفائها الأوَل: معاوية ، ويزيد ، ومعاوية الثاني ، ومروان ، والقسم الأكبر من خلافة عبد الملك — كانت حياة سعة ورخاء. ولا يخالنّ احد ان هذا الرخاء كان ماديًا فقط. لا. فان العاطفة

الدينية كانت عميقة لا يحول دون ظهورها شيء. وان الكنيسة الشرقية لتفتخر بكونها عدت، في العصر الاموي، ثلاثة من اشهر نوابغ النصرانية هم: صفرونيوس بطريرك اورشليم، والقديس يوحنا الدمشقي، والقديس اندراوس اسقف اقريطش.

على ان عبد الملك بن مروان شاء ان يبدع امرًا جديدًا. فرمى الى تعريب مراتب الدولة ودوائر الحكومة.

تعريب الدولة من حقّ الخليفة العربي، بل من واجبه، اذا فهمنا به اقرار اللغة العربية في الدواوين مكان الرومية والقبطية. وما كان احد ليلوم عليه عبد الملك، لولا ما بالغ فيه خلفاؤه من ضيّق الصدر، فاساؤوا فهم غايته وخلطوا بين تعريب اللغة، وتعريب الاعمال والدوائر، كما خلطوا بين العروبة والإسلام. فاخذوا، بحجة التعريب، يستبدلون المسلمين العرب بالذمّيين، وان كانوا عربًا، او بغير العرب، وان كانوا مسلمين. حتى دبّ الفساد في الدوائر ذوات الاختصاص، فاضطرب نظام الحكم. يؤيّد هذا ما نعرفه من اجوبة الولاة وشكاويهم سوء الحالة الجديدة. وهذا قول للخليفة سليمان بن عبد الملك عن الموظفين النصارى، وقد تحقق ضعف الادارة على اثر تنحيتهم عن دوائرها، قال: «لم نستغن عنهم ساعة. وهم لم يحتاجوا الينا ساعة واحدة في سياستهم».[1]

هذا العمل في «تعريب» الخلافة كان الحجر الأول في بناية التعصب القومي والديني: التعصب القومي الذي ادّى الى نفور الموالي المسلمين انفسهم من العنصر العربي، وعمل على قتل الوحدة الاسلامية بل قتل الخلافة العربية بظهور بني العبّاس. والتعصّب الديني الذي ادّى الى اتساع شقّة الخلاف بين العنصرين المهمّين في الدولة الاموية الزاهرة.

لا نقول ان الشقاق بدا في عهد عبد الملك. انما نشير الى ان هذا الخليفة بذر بذوره — وقد يكون عن غير قصد — فنبتت على عهد ابنه الوليد الذي تابع سياسة ابيه. فعزل اكثر الموظفين النصارى، ونزع ادارة المالية من آل سرجون، بعد ان اضطلعوا بها، على غاية ما يُرجى من الدقة

١) ابن عساكر: الكتاب المذكور ٣: ٢٧

والامانة والاخلاص، مدة قرن كامل. وكان يدفع الوليد الى ذلك، فوق ما عرفناه لأبيه من نزعة قومية، ما اتصف من حب التسلط، وما كان يظهره من التقوى الخارجية، والمجاهرة بالعبادة مما لم نرَه عند واحد من سلفائه

والى عهد عمر بن عبد العزيز فاتسعت حركة « التعريب ». فتضاءل شأن الوطنيين، وانشقت عناصر الدولة حتى ادّى الانشقاق الى هبوطها واضمحلالها. فما بدت الراية السوداء من ناحية الزاب الأعلى حتى امكن الشاعر العربي نصر بن سيّار ان يقول:

فِرّي عن رحالك، ثم قولي: على الاسلام والعرب السلامُ!

هذا ملخّص ضئيل لبعض ما قام به النصارى في ذاك العهد بسطناه سهلًا على امل ان يُغتفر ما فيه من جفاف واقتضاب.

وان يكن من عبرة نتّخذها من هذا التاريخ — والتاريخ ابو العبر! — فهي ان ازدهار البلاد لا يكون الّا بالتساهل والتعاون.

اهم مآخذ البحث

البلاذري: فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ليدن، ١٨٦٦

الطبري: تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن، ١٨٧٩–١٩٠١

الواقدي: كتاب المغازي (طبعة von Kremer) ١٨٥٦، طبعة القاهرة، ١٨٦١

ديوان الاخطل (طبعة صالحاني) بيروت، ١٨٩٠

جورج مرعي حدّاد: فتح العرب للشام، بيروت، ١٩٣١

الاب هنري لامنس: اسرة القديس يوحنا الدمشقي (المشرق ٢٩: ١٩٣١)

الاب هنري لامنس: كيف صارت دمشق عاصمة (المشرق ٢٩: ١٩٣١)

الاب هنري لامنس: لماذا افتتح العرب سورية (المشرق ٣٠: ١٩٣٢)

الاب هنري لامنس: فتح العرب سورية والجيش البيزنطي (المشرق ٣٠: ١٩٣٢)

الاب هنري لامنس: سورية في زمن الفتح العربي (المشرق ٣٠: ١٩٣٢)

de Goeje, *Mémoire sur la conquête de Syrie*, Leyden, 1900

H. Lammens, *Etudes sur le règne du Calif omaiyade Mo'âwia Ier*, Beyrouth, 1908

L. Caetani, *Annali dell'Islam*, III, Milano, 1910

H. Lammens, *La Syrie, précis historique*, I, Beyrouth, 1921

H. Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930

A. S. Tritton, *Naṣārā*, dans *Encyclop. de l'Islam*, III.

السلطة الابويه

في الشرع الاسلامي

على مذهب الامام ابي حنيفة

بقلم نجيب صدقه

مقدمة

كانت احكام الشرع الاسلامي ، حتى اواسط القرن الماضي ، مرعية الاجراء بكاملها في هذه البلاد. ولكن تعديلات خطيرة ادخلت عليها منذ ذلك الحين فضيقت دائرة تطبيقها العملي ووجهتها توجيهاً ملائماً للتطورات الاجتماعية الحديثة. ويكفي ان نشير الى القانون الجزائي التركي ، وقانون العقود والموجبات ، واصول المحاكمات المدنية ، والمجموعة الضخمة لقرارات المفوضية العليا ، لندرك اهمية هذه التعديلات من حيث تنظيمها للاحكام الشرعية القديمة ، واتيانها باحكام جديدة مستمدة من القوانين الاوربية عامة والقانون الافرنسي خاصة . حتى ان المطلع على الفقه الاسلامي وحده ليعجز عن تتبع الحركة القضائية في سورية ولبنان ان ظلت معلوماته محصورة في نطاق « مبسوط » السرخسي او « حاشية » ابن عابدين.

على ان هناك موادّ فقهية لم تحور قط لانها مرتكزة على آيات قرآنية واحاديث نبوية هي قدس اقداس الشرع الاسلامي ، لا يجسر المشترع المعاصر على ان يبدل حرفاً واحداً من حروفها او يفسرها تفسيراً مخالفاً لما ورد في كتب الائمة الاقدمين . ومعظمها متعلق « بالاحوال الشخصية » كالنكاح والطلاق والميراث. فان العلاقات الشرعية التي تربط افراد العائلة الاسلامية فتحدد حقوقهم وواجباتهم مقررة بوضوح في المؤلفات القديمة ، ولا يحق لأيّ كان ان ينقص منها او يزيد عليها الّا ما كان ملائماً لروح الشرع القديم.

وما تحديد علاقات الابناء بوالديهم الا فرع من هذه الفروع الثابتة التي لم تتغير بعد . فاذا نحن درسنا «السلطة الابوية» او — كما يسميها الاقدمون — «ولاية الاب» (وقد آثرنا الاسم الاول لانه موافق للاصطلاحات الاوربية المألوفة : Paternal Authority, La Puissance Paternelle, Patria Potestas, Paternel Power) ، فانما نتعرف الى احكام لا تزال مرعية الاجراء في بلادنا ، تتمشى عليها المحاكم الشرعية الاسلامية . وقد اقتصرنا على درس المذهب الحنفي لانه متبع في هذه البلاد.

وبالرغم من حصر جهودنا في نطاق واحد ، وهو مذهب ابي حنيفة دون سواه ، فنحن لا ندعي قط بان هذا الدرس الذي نقدمه جامع للاحكام الحنفية كلها ، مظهر بوضوح لتطورها في خلال القرون الاثني عشر ، باسط بتفصيل جميع الاختلافات التي تفرق ائمة الحنفيين ، لان المصادر التي استطعنا الوصول اليها قليلة جداً بالنسبة لما يجب الاطلاع عليه للاحاطة بالموضوع من جميع نواحيه . فالجزء الكبير من المؤلفات الفقهية القديمة مفقود من مكاتب بيروت ، مبعثر في خزائن مصر واوربة . ولم يتيسر لنا الا الاطلاع على نفر ضئيل منها نثبته في اللائحة التالية مراعين الترتيب التاريخي :

١ — القرآن

٢ — كتب الحديث

البخاري : ٢٥٦ هـ . الصحيح . طبعة بولاق ١٢٩٦هـ

مسلم : ٢٦١ هـ . الصحيح . المطبعة العامرة ١٣٣٤ هـ .

النسائي : ٢٩٣ هـ . السنن . المطبعة المصرية بالازهر (تاريخ الطبع غير مذكور)

٣ — كتب الفقه .

القاضي ابو يوسف ١٨٢ هـ . كتاب الخراج . بولاق ١٣٠٣

الشيباني ١٨٧ هـ . كتاب المخارج في الحيل . نشر يوسف شخت . ليبزيك ١٩٣٠

قدوري ٤٢٨ هـ . مختصر القدوري البغدادي . «مطبعة عثمانية» ١٣٠٩ هـ .

السرخسي ٤٨٣ هـ . المبسوط . مطبعة السعادة . مصر ١٣٢٣ هـ .

ابرهيم الحلبي ٩٥٦ هـ . ملتقى الأبحر . مطبعة «علي بك» (?) ١٢٩١ هـ .

امين بن عابدين ١٢٥٢ هـ . رد المحتار الى الدر المختار . المطبعة الميمنية ١٣٠٧ هـ .

قدري محمد ١٨٧٥ م . الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية . مصر ١٨٧٥ م .

مجلة الاحكام العدلية ١٨٧٦ م . طبعة نجيب هواويني . الحدث ١٩٠٥ م .

الياس داود كسبار : التتمة الفقهية . بيروت ١٩١٢
مخائيل عيد البستاني : مرجع الطلاب . بيروت ١٩١٤
عارف رمضان : مجموعة القوانين . بيروت ١٩٢٨

٤ – الدروس الافرنجية المتعلقة بالموضوع .

Clavel, Eugène, *Droit musulman du Statut Personnel et des successions*. 2 vol. Paris, Larose. 1895.

Guémard, Gabriel, *La condition juridique des gens mariés en Droit musulman*. Aix, 1915.

Salamé, Mohamed Mahmoud : *Le mariage en Droit musulman*. Montpellier, 1923.

Moutwali, Mohamed Mahmoud, *Le divorce en droit musulman*. Montpellier, 1925.

El-Yafi, Abdallah, *La condition privée de la femme dans le droit de l'Islam*. Paris, 1926.

Chatilla, Khalid, *Le mariage chez les musulmans en Syrie*. Geuthner, Paris, 1934.

٥ – مجموعات القوانين التي قوبلت بالشرع الاسلامي فيما يختص بالسلطة الابوية :

Girard, *Droit Romain*. Paris, 1924.

Code Civil Français, 1804, Dalloz, 1936.

Planiol et Ripert, *Traité pratique de droit civil français*. Paris, Librairie Générale de droit et de jurisprudence, 1925.

Colin et Capitan, *Traité Élémentaire de droit civil*. Dalloz, 1934.

الحق العائلي في الكنائس الارثوذكسية . طبعة الارشندريت فوتيوس .
القضاء الماروني ، للخوري يوسف زياده . مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ١٩٢٩

ترى مما تقدم ان المصادر الاولية للفقه الاسلامي قليلة في مكاتب بيروت ، وهي تكاد لا تبلغ ربع المصادر المعروفة . فلا كتب الشيباني ، ولا الخصاف ، ولا التمرتاشي ، ولا قاضي خان وغيرهم ، قريبة المنال بالرغم من اهميتها . اما المؤلفات التي اطلعنا عليها فحاجة ، لا يتيسر فهمها الا لمن اعاد قراءة نصوصها

مرارًا ، وتعوّد فهم مصطلحاتها الغامضة وتراكيبها المعقدة ، فضلًا عن ان طبعها قديم لا يرضي عين القارئ ولا يوافق ما تقتضيه الطريقة العلمية الحديثة لنشر الآثار القديمة، من ضبط وتدقيق وتنظيم. ووددنا لو ان هذه المؤلفات تفرد فصلًا خاصًا للسلطة الابوية ، شأن المؤلفات الغربية ، فتسهل علينا مهمة التنقيب والجمع . ولكنها تتبع تقسيمًا بعيدًا عن المنطق ، وتبعثر المعلومات نتفًا نتفًا في كل فصل من فصولها. فيضطر الباحث ، والحالة هذه ، الى ان يراجعها بكاملها فيقرأ المجلدات الضخمة ليستخرج منها المعلومات القلائل . وحبذا لو اهتم بعض الباحثين بوضع فهارس مطولة لها ، كما وضعوا فهارس للقرآن والحديث ، فتصبح قريبة المتناول ، جزيلة الفائدة ، ويتسنّى لمحتوياتها ان تظهر الى حيّز الوجود ، بعد ان كانت، خلال قرون طوال ، ولا تزال حتى اليوم، كنوزًا دفينة ، وآثارًا للفكر مطويّة. ان للفقه الاسلامي قيمة ذاتية جليلة، لما يتحلّى به من الشمول والتدقيق ، ولكنه لن يحتل المنزلة الرفيعة التي يستحقها بين الشرائع العالمية ، ما لم يقدر له من ينظمه تنظيمًا واضحًا ، فيزيل عنه هذا الغشاء الكثيف ، ويلقي النور على منعرجاته المظلمة . ولا يسعنا الّا ان نشير لما كان لواضعي « مجلة الاحكام العدلية » وكتاب « الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية » من الفضل الجزيل ، من حيث انهم جمعوا الآثار الفقهية المتفق عليها ، ونظّموها في ابواب مختلفة ومواد مقتضبة ؛ ولكن عملهم لا يفيد المؤرخ افادته المحترفين لانه لا يسهل الرجوع الى المصادر القديمة.

ولم نعتبر مؤلفات كسبار والبستاني مصادر ثانوية بما لهذا الاصطلاح من معنى مألوف ، لاننا اخذنا عنها بعض النصوص القديمة التي لم يتسنَّ لنا اخذها من معينها الاصلي . فهي تنقل الاحكام القديمة نقلًا يكاد يكون حرفيًا . غير اننا لا نستطيع ان نعلم مقدار امانتها في النقل، لانها لا تشير الّا الى اسم المؤلف الذي تستند اليه ، دون اي ذكر للجزء والصفحة . ولهذا السبب لم نستخدمها الا بتحفظ .

اما المصادر الافرنجية فعديمة الفائدة. افضلها مؤلّف (Clavel) وهو شرح لكتاب « الاحوال الشخصية » . والكتب الباقية دروس قدمت لنيل شهادة الدكتوراه في الحقوق ، وهي ابعد ما تكون عن الطريقة العلمية في الابحاث التاريخية

والاجتماعية . وقد جهل واضعوها ، فيما جهلوه من الحقائق الاساسية ، ان الشرع مختلف عن علم الاجتماع ، وان احكام الاول تستمد من النصوص الفقهية وحدها ، في حين ان الثاني يمكنه الاستناد الى جميع مظاهر الحياة . فاذا كانت غايتنا التفتيش عن الاحكام الشرعية ، فـلا يجوز ان نعتمد مثلاً على كتاب « الاغاني » او ديوان البحتري.

وقد اجتهدنا ، في سياق هذا البحث، ان نقابل بين الشرع الاسلامي وغيره من القوانين المشهورة ، فاخترنا الشرع الروماني لانه ساعد في تطوّر الفقه الاسلامي ونموّه ، والقانون المدني الافرنسي لانه من ارقى الشرائع المدنية في اوربة ولان بلادنا تتأثر اليوم به ، والشرع الكنسي الشرقي الذي يطبق على المسيحيين من ابناء هذه البلاد. ولكننا لم نرجع الى النصوص اللاتينية لمعرفة الشرع الروماني، بل استندنا الى مؤلف مدرسي يعتبره العارفون ثقة في الموضوع ، وهو كتاب Girard ، ورجعنا الى القانون المدني الافرنسي بنصّه الاصلي ، ولمؤلّفين شهيرَين في شرحه. اما الشرع الكنسي ، فتعرفنا منه الى المؤلّفين اللذين تعتمد عليهما المحاكم الشرعية المارونية والارثوذكسية ، لأن ما تعتمد عليه طائفة الروم الكاثوليك لاتيني اللغة ، ويؤكد المطلعون ان هذه الطائفة الاخيرة تستند الى احكام مشابهة لاحكام الطائفة المارونية.

نتبع في درس السلطة الابوية ترتيباً اصطلح عليه علماء القانون في الغرب لانه يوضح البحث ويلائم طبيعة الحال. وهو يقتضي تقسيم سلطة الاب الى سلطة على « نفس » ولده (Droits sur la personne) وسلطة على ماله (Droits sur le patrimoine) ولكل من هاتين السلطتين ، او « الولايتين » ، احكام خاصة. ولهذا فاننا لا ندرسهما على طريقة واحدة بل نتتبع احكام الاولى في كل من الادوار التي يمر بها الصغير ، منذ الحبل به حتى بلوغه ، لان هذه الادوار تخضع لقوانين مختلفة. ثم نلقي نظرة شاملة على السلطة الثانية دون ما تمييز بين الرضاعة والحضانة وغيرهما ، لان احكام الولاية في المال واحدة في جميع هذه الحالات.

الباب الاول

احكام عامة في السلطة الابوية

١ - تحديد السلطة الابوية.

لم تعطِ الكتب الفقهية تحديداً عاماً للسلطة الابوية لانها تهتم عادة بالجزئيات الدقيقة اكثر منا اهتمامها بالاحكام الشاملة. وعبثاً فتشنا عن شرح لكلمة «ولي» او لكلمة «ولاية»، فلم نعثر الا على جمل مقتضبة في «حاشية» ابن عابدين تحدد «الولي» لغةً وعرفاً، وتتهرب من التحديد الشرعي فلا تورد الا شروط الولاية. قال ابن عابدين: «الولي (بفتح الواو) فعيل بمعنى الفاعل. وهو لغةً بخلاف العدو، وعرفاً (اي في عرف اهل اصول الدين) العارف بالله تعالى، باسمائه وصفاته، وشرعاً البالغ العاقل الوارث»[1] وكل ما يمكننا ان نستفيده من هذا القول هو ان الولاية المقصودة فيه هي ولاية القريب على قريبه، لان الولاية في الشرع الاسلامي على نوعين: اختيارية واجبارية. تكون الاولى بان يختار حرٌ بالغ شخصاً يثبته ولياً عليه، وهي لا تحدث الا في ظروف نادرة، كأن تفوض البنت البالغة امر زواجها الى ولي تختاره «كي لا تنسب الى الوقاحة»[2]. وتكون الولاية اجبارية او «ولاية جبر» اذا حرم انسان من القيام ببعض التصرفات الا تحت اشراف انسان آخر يدعى الولي. وتثبت الولاية الاجبارية باسباب اربعة:

١ ــ القرابة والمراد بها ولاية الاب على الصغار، والكبار المجانين، وتكون القرابة بالعصبات والارحام.

٢ ــ الملك، والمقصود به ملك السيد لعبده.

٣ ــ الولاء، وهو قرابة حكمية حاصلة عن العتق او الموالاة.

٤ ــ الامامة، وهي ادخال القاضي في التزويج باعتباره نائباً عن الامام[3].

---

١) ابن عابدين ٢ : ٣٢٠

٢) ابن عابدين ٢ : ٣٢١

٣) ابن عابدين ٢ : ٣٢١ ؛ وقدوري، ٦٨ ؛ وملتقى الابحر، ١٦٩

فولاية الاب على ابنائه الصغار ، — « والصغار » في الشرع الاسلامي هم الـ mineurs في الشرائع الاوربية اي الــذين لم يبلغوا بعد — هي ولاية اجبارية ثابتة بالقرابة . ويجب ان نفرقها عن الولاء ، والايلاء خوفاً من الالتباس . فالولاء ، كما ذكرنا ، قرابة السيد لعبد اعتقه ، او لعبد اختاره سيداً لنفسه فربطتهما ، في كلتا الحالتين ، قرابة شرعية او « حكمية » . والايلاء هو الحلف على ترك وطء الزوجة ، ومدته اربعة اشهر للحرة وشهران للامة[1] .

اما التحديد الايجابي للولاية فعلينا ان نستخرجه من تنظيمها الشرعي واحكامها القانونية . فيمكننا ان نقول ان السلطة الابوية هي مجمل الحقوق والواجبات التي يعلقها الشارع بالاب او بمن ينوب عنه فيما يختص بتربية الصغار والعناية بنفوسهم واموالهم .

ويكاد هذا التحديد ان يوافق ما تعطيه كتب الحقوق الافرنسية كل الموافقة اذ ان Colin et Capitant يقولان :

«La Puissance Paternelle peut être définie l'ensemble des droits que la loi accorde aux père et mère sur la personne et sur les biens de leurs enfants, tant qu'ils sont mineurs et non émancipés, pour faciliter l'accomplissement des devoirs d'entretien et d'éducation dont ils sont tenus.»[2]

ويقول Planiol et Ripert :

« La Puissance Paternelle est l'ensemble des droits et des pouvoirs que la loi accorde aux père et mère sur la personne et sur les biens de leurs enfants mineurs.»[3]

ومع ان هــذين التحديدين يختلفان بعض الاختلاف ، فهما متفقان في الاحكام الاساسية . اما اختلافهما ، فكون الاول يشمل بالسلطة الابوية « الحقوق والواجبات » في حين ان الثاني لا يذكر الا « الحقوق والسلطة » .

---

١) قدوري ، ٨٦ ؛ وملتقى الابحر ، ٦٥

٢) Colin et Capitant, *Droit civil*, t. I, p. 454

٣) Planiol et Ripert, *Droit civil*, t. I, p. 349

وبديهيٌ ان تحديد Colin et Capitant اكمل من تحديد Planiol et Ripert لان للسلطة الابوية ، كما يقر هذا الاخير ، تحديداً شاملاً وتحديداً ضيقاً ، فالشامل يقتضي ذكر الواجبات ، والضيق يكتفي بتفسير كلمة « Puissance » تفسيراً حرفياً فيجعلها مصدراً للحقوق وحدها ، وذلك لان الشرائع القديمة — وكلمة « سلطة » ابوية مشتقة منها : « Patria Potestas » — منحت الاب حقوقاً واسعة وضيقت على الصغار حتى كادت تعطي لابيهم سلطة مطلقة عليهم[1] . فالتفسيران الافرنسيان متفقان اذن ، ولكنهما يفترقان عن التحديد الذي اعطيناه في انهما يمنحان الام سلطة الاب نفسها على ابنائها الصغار ؛ اما في الشرع الاسلامي فحقوق الام ضيقة ، تكاد لا تتعدى تربية الصغير في دور رضاعته وحضانته وتضمحل تماماً في الولاية على ماله . وهذا ما سنراه بتفصيل عند كلامنا عن درجات الاولياء .

اما القانون الارثوذكسي فيستعمل تعبير « السلطة الابوية » ويحددها قائلاً : « السلطة الابوية هي مجموع الحقوق التي للاب على اولاده من زواجه الشرعي او من التبني مدة استقرارهم تحت هذه السلطة » .[2] وقد اهملت الواجبات في هذا التحديد مع انها ذكرت بتفصيل عند تبيان علاقات الاب بابنائه .

اما موافقة لفظة « ابوية » لطبيعة الحال ، فموافقة تامة في الشرع الاسلامي لان السلطة على الابناء ممنوحة للاب دون سواه ، وحقوق الام قليلة كما ذكرنا آنفاً ، في حين ان علماء القانون الاوربيين يودون لو يزول تماماً تأثير الشرائع القديمة فتبدل السلطة الابوية « بالسلطة الوالدية » لان حقوق الام وواجباتها مساوية لحقوق الاب وواجباته[3]

٢ اساس السلطة الابوية .

منحت الشرائع العالمية جمعاء سلطةً للاب على الابناء ، ولكنها اختلفت في تحديدها لاساس هذه السلطة واسبابها . فالشارع الروماني يعتبر الابناء وابناء

١) Planiol et Ripert, *Droit civil*, I, 350

٢) الحق العائلي : ص ٥٦ مادة ٢٣٢

٣) Pl. et Rip. I, 350 - Col. et Cap. I, 455

الابناء ملكاً للأب ، ويبني السلطة الابوية على اساس الملكية[١]. والشارع الافرنسي يعتبر السلطة الابوية مرتكزة على حق الابناء على ابيهم ، فهو ، والشرع الروماني ، فيا يختص بهذا الموضوع ، على طرفي نقيض[٢] . فالصغار لا يحسنون التصرف بمالهم كما انهم يحتاجون الى من يهذب اخلاقهم وعقولهم ويقدم لهم الغذاء والكساء . وقد وكلت مهمة تربيتهم والاعتناء بهم لابيهم وامهم لانهما اقرب الناس اليهم واشفقهم عليهم ، وعهد الى « المجمع العائلي » (Conseil de famille) بمساعدة الابوين ومراقبة اعمالها ، كما عهد للمحكمة بحق التصديق على التصرفات المالية الهامة كالبيع والشراء والرهن ، فاذا ثبت ان الاب غير اهل للقيام بوظيفته وتقديم العناية الكافية المطلوبة منه ، انتزع القاضي منه سلطته واعطاها لغيره[٣].

ولم نجد في كتب الفقه التي رجعنا اليها شيئاً صريحاً عن اساس السلطة الابوية . فنحن مضطرون ، والحالة هذه ، ان تستند الى مجمل الاحكام المتعلقة بالموضوع لنستخرج منها تفسيراً يوافقها . يقول السرخسي ان الولد « جزء » من الوالد[٤] ، وسنرى ان حقوق الاب في اموال ابنه حقوق واسعة جداً ، وان سلطته على ولده لا يحدها الا ما ورد في القرآن عن تحريم قتل الابناء ، وفي السنة عن طريقة تأديبهم . ومتى علمنا ان هذه الحدود ليست واضحة كل الوضوح ادركنا ان الشرع الاسلامي اقرب الى الشرع الروماني منه الى الشرائع الحديثة التي تعتبر ان للابن حقاً على ابيه لانه اعطاه الحياة ، ويبقى هذا الحق للابن طيلة المدة التي يحتاج بها الى من يعينه ويرشده ويربيه . غير ان الشرع الاسلامي لا يعتبر الابن ملكاً لابيه ، كالشرع الروماني القديم ، بل يعترف له بحقوق كثيرة ويفرض على وليه واجبات جمة يعاقب ان تحداها . ولهذا السبب يمكننا

---

١) Girard, *Droit Romain*, p. 145

٢) Col. et Cap. I, 454-455; Pl. et Rip. I, 350

٣) التانون المدني الافرنسي : المواد ٤٥٧ و٤٦٠ و٤٦٠٢ والقوانين الصادرة في ٢٧ شباط ١٨٨٠ و٢ ايار ١٨٦١ ، و٢٤ تموز ١٨٨٩ و١٥ تشرين الثاني ١٩٢١ وغيرها

٤) السرخسي ٢١ : ١٤

القول ان الشرع الاسلامي لا ينتمي الى اي من النزعتين الرئيسيتين في الشرائع العالمية فلا هو يعتبر السلطة الابوية حقاً للابن ، ولا هو يعتبرها حقاً للاب ، بل ان احكامه تستمد من هاتين النظرتين على حد سواء حسب موافقتها لكل من الادوار التي يمر بها الصغير حتى بلوغه . ففي طور الرضاعة والحضانة تغلب المسحة الحديثة في اثبات حق الابن وواجب الوالدين ، وفي الزواج والولاية في المال تسيطر النظرة القديمة اي توسيع حق الوليّ وتضييق حق الولد . وان هذه المرونة ميزة خاصة بالفقه الاسلامي قد تجعله — من هذا القبيل — مفضلاً على غيره من القوانين العالمية .

٣ مدى السلطة الابوية .

من المشهور عن الرومانيين انهم كانوا يوحدون العائلة تحت سلطة رجل فرد يسمونه « اب العائلة » (Pater familias) ويعطونه سلطة مطلقة على جميع ابنائه وابناء ابنائه ، حتى اذا توفي استقل ابناؤه استقلالاً تاماً ولم يخضعوا لاعمامهم او عمهم او قريب آخر ، بل اصبحوا بدورهم « آباء عائلة » ينعمون بجميع الحقوق التي كان ينعم بها والدهم قبل وفاته . ولم يختص الرومانيون بهذا التنظيم الصارم بل ان شعوباً كثيرة من التي عاشت قدماً في اوروبة وآسية ، كاليونانيين القدماء ، والكلدانيين ، والاشوريين ، واليهود ، عرفت هذه الاحكام وعاشت في ظلها زمناً طويلاً .

اما الاب المسلم فيختلف عن الاب الروماني بامرين رئيسيين :

١ — تنحصر ولايته باولاده ، ولا تتعداهم الى احفاده .

٢ — تنحصر ولايته على اولاده مدة صغرهم ، ولا تمتد على حياتهم كلها ، كما في الشرع الروماني ، بل تنتهي عند بلوغ الولد ، وقد تزول ولاية المال قبل البلوغ ، ان شاء الاب ان يأذن لابنه بالتصرف بامواله[1] . ولا يقع الكبار تحت سلطة ابيهم الا اذا كانوا « غير مكلفين » اي مجانين وسفهاء.[2] — « للاب ولو مستوراً ، الولاية على اولاده الصغار والكبار غير المكلفين ، ذكوراً واناثاً ،

١) قدوري ٧٧ ؛ وملتقى الابحر ١٧٣-١٧٢ ؛ والمجلة ٩٧٠

٢) كسار ص ٤٨٧ ؛ والاحكام الشرعية ، المادة ٤٣١ ؛ والمجلة ، المادة ٩٨٦

في النفس وفي المال ، ولو كان الصغار في حضانة الام واقاربها. »[1]

اما سن البلوغ ، فتبدأ عند انتقال الولد من دور الصغر الى دور الرجولية ، حالَ ظهور علامات فارقة في جسمه . فاذا لم تظهر فيه هذه العلامات يعتبر بالغًا عندما يجوز سن الخامسة عشرة[2]. وسنعرض ذلك بالتفصيل في اوانه.

هذا فيما يتعلق بتحديد السلطة الابوية من حيث الاشخاص الذين تتناولهم والزمان الذي تبقى فيه فعالة. اما تحديد « مادتها » ان جاز التعبير ، اي اظهار الحدود التي يجب ان تنحصر فيها المدة المعينة ، فمطاطة ، تسيرها العادات (mœurs) اكثر مما يسيرها الشرع. بنص القرآن على ان الابناء يجب ان يطيعوا والديهم ويحترموهما:

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل ربِ ارحمهما كما ربياني صغيرًا ».[3]

« وبالوالدين احسانًا اما يبلغَنَّ عندك الكِبَرَ احدهُما او كلاهما ، فلا تقل لهما أفٍ ، ولا تنهرْهُما ، وقل لهما قولًا كريمًا ».[4]

ولم ترَ الكتب الشرعية حاجةً الى الزيادة على ذلك لان الناس لم يخرجوا عن الطرق التي سنّها لهم القرآن: وربما كان من اسباب هذه الطاعة ، ما وضعه القرآن نفسه من حدود لواجبات الابناء . فعلى الابناء ان لا يطيعوا والديهم في القيام بما ينافي وصاياه الدينية: « وان جاهداك على ان تُشرك بي ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحِبهما في الدنيا معروفًا ، واتَّبع سبيلَ من أناب اليَّ ، ثم اليَّ مرجعكم فانبِّئكم بما كنتم تعملون»[5] . فمن خرج عن هذه الاحكام عاقبه الله في اليوم الاخير : « ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم

١) الاحكام الشرعية ، المادة ٤٣٠

٢) قدوري ص ٤٨ ؛ ملتقى الابحر ، ص ١٧٣ ؛ الاحكام الشرعية ، المادة ٤٩٥ ؛ المجلة ، المواد ٩٨٥–٩٨٨

٣) القرآن: ١٧ [الاسرى] ٢٥

٤) القرآن ، ١٧ : ٢٤. راجع ايضاً : ٢ : ٧٧ و٤ : ٣٦ و٦ : ١٥٢ و١٩ : ٢٢ و٢٣ و٣١ : ١٢ و٤٦ : ١٤ و١٦

٥) القرآن ، ٣١ [لقمان] ١٤

وعشيرتكم . . . احبَّ اليكم من الله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله ، فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يَهدي القوم الفاسقين »[١] . وحدّد القرآن كذلك سلطة الاب على نفس ابنه فحرّم قتل الابناء . : « ولا تقتلوا اولادكم خشيةَ إملاقٍ ، نحن نرزقكم واياهم . ان قتلهم كان خِطأً كبيرًا »[٢] . واهتم النبي بهذه الوصية ، فجعلها في مصاف الايمان بالله والتوحيد : « يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يُشركن بالله شيئًا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن اولادهن . . . فبايعهنَّ واستغفر لهنَّ الله ، ان الله غفور رحيم . »[٣]

غير ان العلماء المتأخرين لم يعاقبوا الاب القاتل ابنه معاقبة غيره من المجرمين العاديين . فحكموا انه اذا امر بقتل ابنه لزمته الدية « استحسانًا » ولا يلزم القصاص ، « وفي القياس يقتص منه »[٤] امـا اذا قتل ابنه بنفسه فلا يُقتل . والجد ، من قِبَل الرجال والنساء ، وان علا ، بمنزلة الاب . كما ان الجدة من قبل الاب والام ، وان بعدت ، والام نفسها ، تعامل معاملة الاب . وعلى الاباء والاجداد ان يدفعوا الدية اذا قتلوا الابن عمدًا ، في ثلاث سنين . وان كان الوالد قتل ولده خطأً فالدية على عاقلته . وكان في ورثة المقتول ولد القاتل ، او ولد ولده ، وان سفل ، بطل القصاص ووجبت الدية[٥] .

وللاب في تأديب ابنه حق يؤيده ما ورد عن عائشة قالت : « عاتبني ابو بكر وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك الا مكانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأسه على فخذي »[٦] — وزاد علماء الشرع ان الاب ، ان ضرب ابنه الصغير للتأديب ، لا يضمن (على رأي محمد وابي يوسف) ويضمن (عند ابي حنيفة) . وقيل رجع الامام الى قولهما . اما اذا ضرب

---

١) القرآن ، ٩ [التوبة] ٢٤ . راجع ايضاً ٤ : ١٢٤ ؛ و٩ : ٢٣ و٢٤ ؛ و٢٩ : ٧ ؛ و٥٨ : ٢٢
٢) القرآن ، ١٧ [الاسرى] ٣٣
٣) القرآن ، ٦٠ [الممتحنة] ١٢ راجع ايضاً ٦ : ١٢٨ و١٤١ و١٥٢
٤) كسبار : ص ٢٠٦ (نقلًا عن البزازية) .
٥) البستاني : ص ٣٦٢ (نقلًا عن الكافي وفتاوى قاضي خان) .
٦) البخاري ، ٦ : ١٥٥

الابُ الصغير للتعليم فلا ضمان اتفاقاً. ويحق للاب ان ياذن للمعلم بضرب ابنه. اما الام فتضمن ان ضربت ولدها. وان عدم الضمان بما تقدم يبطل ان لم يكن الضرب في المحل المعتاد والكمية والكيفية المتادة. فلو ضرب الاب ابنه على وجهه او على المذاكير، ولو سوطاً واحداً، ضمن لانه اتلاف[١]. ولا يزاد الضرب على المحل المعتاد على ضربات ثلاث. ويجب الضرب باليد لا بخشبة. وقد روي عن النبي انه قال لمرداس المعلم: «اياك ان تضرب فوق الثلاث، فانك ان ضربت فوق الثلاث اقتص الله تعالى منك».[٢]

كل التفاصيل التي سبقت تجمعها ميزة واحدة، وهي انها سلبية، تحرم على الاب القيام ببعض الاعمال. اما الاحكام الايجابية فقليلة جداً، لم نجد منها في الكتب الشرعية الا اثنين:

١ — من المستحسن ان يتزوج الرجل من امرأة تعينه على تربية اولاده[٣]

٢ — يجب على الرجل ان يعتني بابنه ويقدم له النفقة «فمن جحد ولده وهو ينظر اليه احتجب الله عز وجل منه وفضحه على رؤوس الاولين والآخرين يوم القيامة».[٤]

واذا قابلنا القانون الافرنسي بالشرع الاسلامي، وجدناهما متفقين في حصر السلطة الابوية بالابناء طيلة زمن صغرهم، ومختلفين في تحديد مدة الصغر، فالمحاكم الافرنسية لا تعتبر الولد بالغاً الا اذا جاوز الواحدة والعشرين[٥]. ولا يحق للاب ان يتقاسى في تاديب ابنه، والّا انتزعت منه سلطته واعطي الولد لغيره[٦]. وفي القانون الافرنسي ميزة خاصة لم يعرفها المسلمون قط، وهي ان

---

١) كبار: ص ٢١٨ (نقلاً عن الدر المختار).

٢) كبار ص ٢١٨–٢١٩ (نقلاً عن ادب الاوصياء).

٣) البخاري، ٦: ١٨٤–١٨٥

٤) النسائي، ٦: ١٧٩–١٨٠؛ وقدوري: ٩٧؛ وملتقى الابحر ٧٤ و٧٥؛ والاحكام الشرعية، المادة ٣٩٥ و٣٩٦

٥) القانون المدني الافرنسي: المادة ٣٨٨

٦) القانون الجزائي الافرنسي: المادة ٣١٢ – والقوانين الصادرة في ٢٤ تموز ١٨٨٩ و١٩ نيسان ١٨٩٨

الاب يحق له ان يطلب من السلطات العامة ان تسجن ابنه ، ولا يحق للقاضي ان يرفض طلبه ، ولا ان يستوضحه عن اسباب هذا الطلب اذا توفرت الشروط الاربعة الآتية :

١ ــ ان لا يكون الولد قد تجاوز السادسة عشرة .

٢ ــ ان لا يكون له مال خاص .

٣ ــ ان لا يكون صاحب عمل .

٤ ــ ان لا يكون الاب قد تزوج مرة ثانية .

فاذا فقد احد هذه الشروط حق للقاضي ان يتدخل ويحكم في القضية كما يشاء.[١] وليس للام ان تجبر المحكمة على حبس ولدها حتى اذا توفرت فيه الشروط الاربعة الآنفة الذكر ، بل عليها ان تقدم طلباً خاصاً الى القاضي ، وللقاضي الحق ان يرفضه او يقبله او يعدله . واذا تزوجت الام سقط حقها[٢] . ولا يسعنا الا ان نعترف هنا بتفوق القانون الافرنسي على الشرع الاسلامي ، فهو، فضلاً عن الاحكام السابقة ، يؤسس مدارس خاصة يقبل فيها الصغار الفاسقون او المجرمون عوضاً عن ان يدكوا في السجن ، ويستطيع القاضي ان يأمر الاولاد بدخول هذه المدرسة حتى اذا لم يتقدم اليه الاب او الام بطلب في هذا الموضوع، بل كان الطلب صادراً عن المدعي العام . ولمدارس المجرمين الصغار غاية تهذيبية تسعى الى صقل اخلاقهم وابعادهم عن الشر باللين لا بالارهاب.[٣]

اما الشرائع الكنسية فلا تهتم الا بتحديد سن البلوغ . وقد ورد في الحق العائلي الارثوذكسي انَّ « من لم يُكمل السنة الحادية والعشرين من عمره عُدَّ قاصراً »[٤] . وفي الحق العائلي الماروني لا ترفع الولاية عن الولد الا في الثامنة عشرة اذا كان انثى ، وفي العشرين ان كان ذكراً[٥] . والحق الماروني هو الوحيد الذي يفرّق بين سن البلوغ للانثى والذكر .

---

١) القانون المدني : المواد ٣٧٦ و٣٨٠ و٣٨٢

٢) القانون المدني : المادة ٣٨١

٣) القانون الصادر في ١١ نيسان ١٩٠٨

٤) الحق العائلي : المادة ٢٣٧   ٥) القضاء الماروني : ص ١١

٤ – من يتولى السلطة الابوية

ننهي هذه الاحكام الشاملة لجميع الادوار التي يمر بها الصغير بنظرة الى درجات الاولياء. ونلاحظ ان هذا الترتيب يختل في حالة زواج الصغير ويحل محله ترتيب آخر نذكره في حينه. اما الذين يحق لهم ان يكونوا اولياء على الصغير فنثبتهم في اللائحة التالية مرتبين حسب الاسبقية:

١ – الاب. فان كان الاب حياً يكون وحده ولياً على اولاده، ما لم تنزع منه ولاية.

٢ – الوصي الذي يوصي به الاب قبل موته.

٣ – وصي الوصي، وليس لهذا الاخير ان يوصي بوصي ثالث.

٤ – الجد الصحيح، اي ابو الاب او ابو ابي الاب.

٥ – وصي الجدّ الصحيح.

٦ – وصي وصيّ الجد الصحيح.

٧ – القاضي، ان لم يكن احد من الاولياء السابقين في قيد الحياة او انتزعت منه سلطته.

٨ – وصي القاضي.

٩ – وصي وصي القاضي، على شرط ان تكون وصاية القاضي لوصيه وصايةً عامةً.[١]

ولا ولاية للام على ابنائها ان لم تكن وصياً[٢]. وكل ما تذكره الكتب لها من الحق انها «راعية على بيت زوجها وولده» ولا تستنتج لها من هذا القول حقاً واضحاً بل واجبات واضحة «...وكلكم مسؤول عن رعيته»[٣]

وفي الحق العائلي الافرنسي ان ولي الصغير ابوه ما لم تنزع منه ولايته (واسباب انتزاع الولاية من الاب عديدة جداً نذكرها في اوانها) وتعطَ لغيره. واذا مات او غاب حقّ للام ان تكون ولياً. فاذا توفيت انقطعت الولاية ولم

١) كسار ص ٤١٣ – والمجلة: المواد ٩٧٤ و٩٨٣ و٩٨٦

٢) البستاني ص ١٦٦ (نقلاً عن الهندية)

٣) البخاري، ٦: ١٤٥

تتحول الى الجد، بل تحولت اليه «الوصاية» لان شروط الوصاية صارمة ولا يحق للجد ما يحق للاب[١].

وفي الحق العائلي الماروني تكون الولاية :

١ ــ للاب.

٢ ــ لوصي الاب.

٣ ــ للاخوة، الاكبر فالاكبر.

٤ ــ الجد.

٥ ــ العم.

٦ ــ ابن العم.

٧ ــ المربي.

٨ ــ القاضي يولي وصياً اميناً كفوءاً[٢].

وتكون الولاية في الحق العائلي الارثوذكسي

١ ــ للاب.

٢ ــ لوصي الاب.

٣ ــ للجد والد الاب.

٤ ــ للوصي الشرعي الذي يختاره الرئيس الروحي بناء على طلب انسباء القاصر وموافقة المختار والكاهن «وغيرهما من اهل الثقة والخبرة»[٣].

وليس للنساء (ما عدا الام والجدة) ولا للمصابين بالجنون والعته، ولا للمحكوم عليهم بالسفاه والممنوعين من شركة الكنيسة والمشهورين بسوء السيرة او بفساد العقيدة، ولا للصم والقاصرين والاكليريكيين، ومن له حق للتركة او عليها، ان يكونوا من الاولياء[٤]. واذا وجد للقاصر اولياء كثيرون اشتركوا في العمل وتكافلوا ولم يحق لاحد منهم ان ينفرد بعمل الا باذن صاحبه، وعلى مسؤوليتها[٥]. (للبحث صلة)

---

١) القانون المدني: المادة ٢٧٢ و٤٠٢ و٥٠١. والقانون الصادر في ٢٠ اذار ١٩١٧

٢) القضاء الماروني: ص ١٠-١١ ٣) الحق العائلي: المادة ٢٤٠ و٢٤٣ و٢٤٤

٤) الحق العائلي: المادة ٢٤٥ ٥) الحق العائلي: المادة ٢٤٦

اخبار حلب وحوادثها

من السنة ١٨٥٥ الى السنة ١٨٦٥

اخذًا عن يومية المعلم نعوم البخاش

المخطوطة الوحيدة ، نشرها وعلق عليها

الاب فردينان توتل اليسوعي

٣

[٣٨^٢] — الاحد ، صار مطر وافر . — الاثنين ، رحت عرس مخائيل بن نقولا اليان وانبسطنا كثير .

— والسبت ، في ٩ شوال ١٢٧٤ ، في ٢٢ ايار ١٨٥٨

وسافر حنا دير اروتين الى بيروت . — والجمعة ، سمعنا ان في طلب للمشورة للسلطان عبد الحميد لان الموسكوب طالب الشروط منه فقصد يجمع من بلاده مقدار الف واحد لكي يشاورهم ويكونوا من ارباب الخبرة وهكذا الله يقدم الخير .

— السبت ، في ٢٩ ايار ١٨٥٨ ، في ١٦ شوال ١٢٧٤

[٣٩^١] — وسمعت دشروا يوسف هندي من ترجمة الفرنساويه لان قونصل الفرنساوي ارسل خلفه بالليل ان يروح ويطالع واحد من الحبس فتركها الى بكره ما راح فعزله وسمعت ان جرجي ظاهر طالع واحد بغير اذن القنصل فعزله .

[٣٩^٢] — الاحد ، اولها رحنا المسلميه ومراش وبليط وجرجي غضبان .

— السبت ، في ٥ حزيران ١٨٥٨ ، في ٢٣ شوال ١٢٧٤

وبديوا بالرسايل جرجي سالم ونعوم كبابه . والسعله زايده كثير للاولاد والى الكبار عامة الجميع . الله يعطينا خيرها . اجانا برميل سكر من البيرقين ٢ منديات وارسلنا قنطار تنبك لمرعش — والاثنين سافر فرنسيس شوكتلي الى مرعش .

[٣٩^٢] ـــ الجمعة ، اجا حنا حكيم من اسلانبول واستقام [فيها] ٢٢ سنة . وعيد قلب يسوع .

– والسبت ، في ١٢ حزيران ١٨٥٨ ، في ٣٠ شوال ١٢٧٤

واولها عرس بن الشماس لبنت العرقتنجي . والتراجين هنـدي وضاهر ما رجعوا لمراجعهم الى الان .

[٤٠^١] ـــ الخميس ، سافر كوريخ لانطاكية وتعشيت بالعويجى مع بيت فرنسيس عجوري جات . وعزوز وتاجر وضناته وصولا .

– السبت ، عيد غريغوريوس ارمن ، في ١٩ حزيران ١٨٥٨ ، في ٧ ذي القعدة ١٢٧٤

وهذه الجمعة هوا زايد ورمي التفاح عندنا بالبيت ورمي المشمش والكرز بالبستان لحد السبت ومات قسيس جبرائيل رباط .

[٤٠^٢] ـــ الاحد ، رحنا ومراش وبليط ومغربيه الوضيحي لعند ضيعه عبطين ورجعنا مساء جبت رطل ٣ ـــ والاثنين قريت ـــ والثلاثا طالعت علق واستكرينا جحش الواحد ٧٢ والثاني ٥ وركب مراش ببلاش وكانوا الصياده من اول يوم منضفين[1] عتيق الوضيحي ورجعنا مساء رطل ٢ بني وبراق وانكليز صغار .

– السبت ، في ٢٦ حزيران ١٨٥٨ ، في ١٤ شوال ١٢٧٤

وارسلنا مكتوبين لالبيرفين والى فخر لاسلامبول ومرسيليا . ـــ والاثنين ، ولدت وجابت صبي قبل المغرب بنصف ساعة مراة انطون دير اروتين الياس . ومات بوخير حمو مركوبولي صهر ميشيل صولا .

[٤٠^٣] ـــ اربعا ، ماتت مريانا خاتونّ مدام باركر ودفنوها ـــ والخميس ، مات نازي الحكيم وقبروه الجمعة .

– السبت ، مار توما في ٣ تموز غربي ١٨٥٨ ، في ٢١ ذي القعدة ١٢٧٤

وبديوا بالرسايل ضاهر واولاد سالم وصاجاتي جردان ـــ والجمعة ، اجا مقدسي شكري تاجر ونزل بيت عمه زياره واولها سافر مدور ونصري خوري وحكيم مقدسي شكرالله حمصي اسعد وزلته .

[٤١^١] ـــ الاحد ، مساء كنت معزوم لعرس ميخائيل صادر وما رحت كنت تعبان ـــ والاثنين ، قعدوا عندي اولاد يوسف مشحور بنت وصبي .

[1] كانوا قد اصطادوا كل ما كان موجودًا من السمك

– والسبت ، في ١٠ تموز ١٨٥٨ ، ٢٨ ذي القعدة ١٢٧٤

وصاير مثل هوا اصفر تصفرن وتوشيم ونطق وسهال لكن على خير وسلامه . ومن الجملة [مرض] صادر العريس وبنت فتح الله جهامي كايلكه وسوسه بنت الياس كبابه.

– والسبت ، في ١٧ تموز ١٨٥٨ ، و٦ ذي الحجة ١٢٧٤

[٤١٢] — وسمعنا بجده قتلوا كل الافرنج ما عدا بن امير ابن الحكيم سلم من القتل. وبكريد صار من الاسلام نصارى عده ، وتقاتلوا مع الاسلام في البلد اي كريد فقاموا النصارى الذي تنصروا قتلوا الاسلام يكون معلوم وباسلامبول صار فزلكه لولا يلحقوها صار خراب عظيم باسلامبول. والهوا. كل هذه الجمعة زايد كتير كتير ودخلنا نما بالبيوت ليله الثلاثا كل الناس. ومعوض بطل عن المكتب وصار دكانجي عند ويبر الانكليزي السنة بالف ٤ يكون معلوم.

[٤١٢] — الثلاثا ، عيد الله اكبر والاسلام مزربنين[1] وكانوا رايحين يقوموا

١) ان المسيحيين رعايا السلطان في حلب لا يزالون عائشين في حالة الخوف. ولا يمكن ان نفسر ذلك الا برد فعل طبيعي بعد ما قاسوه منذ تسع سنوات من الشدائد والا فلا ارى كيف تكون احوالهم اسوأ من احوال سائر الشعوب المسيحية التي تعيش في المدن التركية التي لم يقع فيها ما وقع في حلب . على ان حوادث كحوادث ١٨٥٠ عبر نسيانها . بيوت نهبت ، رجال من عيون قومهم قتلوا، نساء هتكت اعراضهن. فلا عجب ان يحاول من كانوا شهودًا عيانًا لتلك الفظائع ان يحجبوا عن الانظار امرالهم ويمنعوا عيالهم عن الخروج ما وراء حدود الاحياء المسيحية . قبل الاحتلال المصري سنة ١٨٣٢ كانوا مصيبين في التشكي من شواذات عهدوها سابقًا والفيت: كان ممنوعًا عليهم ركوب الخيل في البلدة والتنزه في البساتين وكان تجارهم الاغنياء يضطرون الى ارتداء ثياب رثة لئلا يستلفتوا الانظار فيسخروا في اعمال مشينة ككنس الطرقات او حراسة الابواب لكي يزدوا برهانًا على خضوعهم وطاعتهم، ولا يصافحهم او يكلمهم مسلم من المسلمين الا بالتحقير. ان المصريين عاملوا المسيحيين غير تلك المعاملة ولم يتجدد من ثم ظاهرًا شيء من تلك الشواذات المشينة من جانب المسلمين بعد خروج المصريين من البلاد ، لكن بواطن القلوب، على ما ارى ، لم تتغير الا قليلًا او لم تتغير البتة . ان المسيحيين يقولون ان الجديد لم يحدث الا سطحًا ولا ينفكون يتكلمون عن نهب وقتل عتيد ان يأتي عن قريب في كل فرصة سانحة « لتزربن » المسلمين في اعيادهم ومواسمهم . (انتهى)

يقول الناشر : ان هذه الاخبار قد استقاها القنصل سكيني من الناس . وانما تتفق مع

الاربعا والخميس هكذا سمعنا والفزلكه باسلامبول لاجل ان ما ختم مرسل العصملي بباريز للدول كان هذا السبب وبعده ختم وانقضت.

– والسبت ، في ١٤ ذي الحجة ١٢٧٤ ، في ٢٤ تموز ١٨٥٨

والسبت ، بدي هزّاز يكتب وبديوا يبلطوا غلاقة كنيسة السريان جنب العواميد القرنة كلها.

[٤٢'] ـــ الاحد ، ما رحت لمكان بل كنا وخفانين من قومة البلد ومرعوبين لان بطرس الطويل سب الاسلام بالبياضة وقال دين محمد مات والنصارى بدهم يقتلوا المسلمين وبده يدق الناقوز وهو من الاسلام والمذكور جانن ومغير عقله وحملت غلي[1] ـــ والاثنين كذلك والثلاثا كذلك واناس بديوا ينقلوا الباش[2] للمدينة وصناديق ومصاغات يكون معلوم ـــ الاربعا ، هديت وحبسوا بطرس الطويل وركنت الدنيا ـــ اولها شاوروا يوسف شركتلي الى بنت نعوم غزاله غره وما كان احد معزوم يكون معلوم.

– السبت ، في ٢١ ذي الحجة ١٢٧٤ ، في ٣١ تموز غ ١٨٥٨

ـــ والجمعة ، سافروا لعند عمر باشا لبغداد ؛ فرنساويه كانوا نازلين خيم في الحجازي . ووصلني خلعة عبدالله سالم طاقة بيضا زمام ومنديله لفافه.

[٤٢''] ـــ الاحد ، ضرب عبدالله بن شكرالله صايغ بن البردخجي بالفرد وصابه بوجهه وارادوا يسركلوا بن صايغ لكلز يوم ٢٢ وتمرض المذكور ـــ والاربعا ، غط وانهزم وحبسوا ابوه مكانه بالصرايا يكون معلوم . وعندنا اخذوا ثوب جيت دبروا المخدات على عيدي وغير اشيا والبلد يعني[3] احسن من اول ـــ والجمعة ، عيد التجلي ودرت عيدت والبلد مشرشه وسمعنا ان بجسر

اخبار البخاش كأن احد الكاتبين كان مصدرًا للثاني . فهل يكون البخاش في تردده على القنصل البريطاني يخبر ويستخبر ؟ – ان امر ارتداء التجار ثيابًا رثة لاسفارهم معروف ولعل تلك العادة لا زالت جارية الى ايامنا فترى ان الحلبيين لا يحتمون بلباسهم في السفر وحسن هندامهم كما يحتم غيرهم بذلك من المسافرين في القطار الحديدي.

١) حملت غلي اي اثارت الاضطراب

٢) اللباش او الامتعة

٣) يعني اي نوعًا ما

بجامع الازهري انوجد اناس مسلحين مقدار الف . وباشة مصر صار له خبر فكبس الجامع ومسك الف ١٠ ومنهم بحَرَهم ومنهم حبسهم والمشايخ شنق تلاته وقتل اربع وبعد نعرف كيف صار . لان ما لي خبر شافي[1] وبيروت مزربنه وسمعنا طلب من الشام نظام بعد نعرف .

– السبت ، في ٧ آب ١٨٥٨ ، في ٢٨ ذي الحجة ١٢٧٤

— والسبت، ولدت مراة حنا دير اروتين قبل المغرب جابت بنت— والجمعة اجــا نصرالله مراش من السفر واجا فتح الله بن نُعُوم عجمي من عين تورا — والثلاثا خلص تبليط الكنيسة للسريان كلها ما عدا الرخام بالوسط .

[٤٢^٢] — سمعت ان بطرابلس مسلحين الاسلام ونزل من بيروت ليثبت قونصل [Lesseps] الفرنساوي ومعه انفار هدوا الناس وبالشام سمعنا كسروا الناقوز والبطرك انهزم. — والثلاثا، اول محرم ١٢٧٥ سنة مباركه ورجع اجا صايغ وقعد بطرس دير اروتين بن يوسف وكزه بنت اختي كتر المرحومة جايين العيله كلهم من ادنه ومن ترسوس لكي يحضروا عرس انطانيوس وثابت — السبت، البطرك اخذ معه بدله عتيقة وبدلة ثياب عتيقة وكتب ورقة انه تنازل عن البطركية وانهزم للجبل وقال اسمه قس بطرس.

في ٥ محرم ١٢٧٥ ، في ١٤ آب ١٨٥٨

واجوا اولاد العبديني من ادنه .

[٤٣^١] — الاحد، ماتت مراة الضاهر ام الياس ضاهر الله يرحمها ما طوات يوم ١٠ . — السبت، ارسلنا مكتوب لالبيرفين مع صره ليره عدد ٥٠ فرنسا — والاثنين، دفعت لمراة كوبا ٥٢٠ غرشاً جينكوه ٣٠ سمر ٢٦ من كُرا الحوش والسبت مات فرنسيس كنيدر الله يرحمه .

في ٣١ آب ٥٨ في ١١ محرم ١٢٧٥

ويوما اجا ناظر الاوقاف كتب اسمي وعدد الاولاد وكيف آخذ منهم وشاف الزاية [التي كتبت عليها] فاتحة وما اعلم لماذا بعد نعرف عنها وسمعنا

---

١) ما لي خبر شافي . هذه العبارة دليل على صدق البخاش فلا يؤكد الا ما تأكده بنفسه وما دون ذلك فيرويه على علاته .

في اسكندرية مصر في وبا وله سنة ٣٢ قاطع من هذه الديار والان ظهر هكذا قالوا وسركلوا بطرس الطويل وواحد اخر نصراني واسلام ٢ الى روم قلعة ايام طويلة.

[٤٣٣] ــ السبت سمعنا هدم ثلاث ارباع جده وشنقوا القاضي من بيضه واحدى عشر نفر اعيان شنقوهم بصاري المركب. واخذوا لاطوساق (؟) مقدار عدد ٤٠ نفر هكذا سمعنا قصاصهم لاجل انهم قتلوا القناصل الافرنج من جمع عده ٧ اخذوا التار وبعد نعرف.

– السبت ، في ٢٨ آب ١٨٥٨ ، في ١٩ محرم ١٢٧٥.

واجا الاربعا حنا خوكاز من بيروت ولحق العزية لبيت عمه زلعوم عزية العروس ــ والخميس ، سافر مخايل بن اخت الخوري الى كلز وام مرته وكتبت ورقة لمطران يوسف تصليح من كتاب المقدس للكنيسة السريان مشق للتعليق. ولوسيا كويا-مراة شستمان جابت صبي الجمعة وكتبت صورة سيدة النجاة لكنيسة السريان وقف للسيدة بن يوسف نصره في ٢٣ آب ١٨٥٨ ــ والاربعا اجت مراة شكرالله تاجر من الغربة هربت من وقت النهبية [١٨٥٠] الان رجعت.

[٤٣٣] ــ الاحد ، تغديت عند فرنسيس عجوري والمذكور رمدان وخطبة بنته الى شكرالله ابن نُعوم بخاش وبعده رحت العزية الى سبوع بن زلعوم ورحنا العشا نقشة بنت نعوم غزاله الى يوسف شوكتلي وتعشينا وبعده ودينا العروس. الاثنين العرس وفطرت وبعده الكليل وبعد الكليل سخنت ومساء رحت عند الحكيم قال فصاده واهلي بيت اختي وجارتنا مريم فستوك دبرتني. واجوا س ٣ خواتي والثلاثا علق ١٥ باب الخاتم والاربعا احسن والخميس احسن وشربت ملح ترطيل درهم ١٢ والجمعة ماء راوند درهم نصف وملح درهم ١[1] ــ والسبت ، الحمد لله كيفي احسن. وارسلنا مكتوب الى البيرقين فرنك ١٠٠٠ والى اسلامبول الى بيت فخر وجاب جبرا ارز رطل ٥ من الاتي من مرعش.

١) هذه التفاصيل لم نحذفها من المتن لما فيها من فائدة عن طريقة التطبيب في تلك الايام

في ٤ ايلول ١٨٥٨ ، في ٢٦ محرم ٧٥

والسبت اخذنا فستق رطل ٧ غرش ٢٢ .

[٤٤¹] ــ الاثنين قعدوا عندي اولاد فتح الله شعراوي وبــدي يكتب اخو جبرا بليط.

– السبت ، ١١ ايلول ١٨٥٨ ، في ٣ صفر ١٢٧٥

[٤٤²] ــ الثلاثا ، رحت عزية جات مع بيت كوبا بستان الزيماوي وكان جنو نُّوم وعقيلته واجا رزق الله جهامي بعد الظهر وبعده قسوس ٢ حكما روفايل ولويس[1] . ــ الاثنين ، سناني عمال يوجعوني والى الخميس والجمعة احسن على ملح العادة وملح البارود وصفة الجدّ. السبت اجا وكيل البطرك انطون سمحيري ومعـه اولاده وتول بيت الضاهر . والباشا اجا الاربعا . والاثنين سافر عمر باشا[2] باشة الذي قبله.

---

١) كلاهما من بيت الحكيم

٢) في الصفحة السادسة من مقدمتنا على اليومية لم نذكر عمر باشا في لائحة ولاة حلب على ذلك العهد. فهل يكون عمر ذات الحاج كامل؟ ومن المعروف انه كان للاتراك اسماء متعددة او هل غلط البخاش فيما كتب ؟ ولم نجد ذكرًا « لعمر » في سجل القنصلية البريطانية وقد وصف فيه القنصل سكين الباشاوات الثلاثة الذي تعرف اليهم في حلب فكتب في ٢١ مارس سنة ١٨٥٩ .

«محمد رشدي باشا ، والينا الحالي ، رجل ذكي الفؤاد ، لين العريكة ، نشيط ، مفكر ، عامل ، رابط الجأش ، حزوم ، لكنه عنيد ، مستبد برأيه ، ولا اعرف تركيًا اشد كراهةً منه للثقافة الاوربية .

ان محمد رشدي باشا هو ازهد الباشاوات نفسًا ولا يلومه احد من الناس في الشهباء على نقص ما ولكن النتيجة الواقعية من حكمه لا تناسب المقدمة التي ذكرناها . من المدهش ان محمد باشا مع كون طبعه يخالف كل المخالفة طبع سلفه الحاج كامل باشا حاكم ازمير في يومنا ومع كون طبع الحاج كامل يخالف ايضًا كل المخالفة طبع سلفه مصطفى اشقودرولي الذي ارسل مؤخرًا واليًا على جدّه فالادارة في حكم الولاية لا تزال تسلك الطريق ذاتها التي سارت فيها بين جمود ورشوة مهما يكن من امر تغيير الولاة وتفاوت تراهتهم في التدبير . قد افسر هذه الحالة بوجود الاعيان وتأثيرهم المترابد في شؤون الحكم . قلما يأخذ الباشا على عاتقه مسؤولية تدبير الامور ولو تافهة ولا يبت بأمر وينفذه الا بعد استشارة المجلس . لقد قللوا من عدد اعضاء المجلس وخطوا في سبيل الخير خطوة مستقيمة فتتلص بذلك قل الاعيان لكن

– السبت ، في ١٨ ايلول ١٨٥٨ ، في ١٠ صفر ١٢٧٥

والجمعة اجت التفنكه من مرسيليا من عند مارون التاراس فرنك ٤٥ سعر ٤⅞ ٤ الفرنك.

– السبت ، في ٢٥ ايلول ١٨٥٨ ، في ١٧ صفر ١٢٧٥

[٤٤٢] ـــ والثلاثا ، سافر قس حنا ومعه الاولاد الى دير الشرفة والمذكور نايب بطريركي بطرك انطون سمحيري والباشا طلب البدليه[1] من النصارى.

[٤٥١] ـــ الاحد ، عرس بن التركماني لبنت غابو الموصلي انطون ـــ الاربعا ، قعد عندي بن الياس خليل وابن قندلفت الارمن عجم وابن مخايل جنبرت.

– السبت ، في ٢ ت الاول ١٨٥٨ ، في ٢٤ صفر ١٢٧٥

والنجمه للان زهرانه ما راحت.

– السبت ، في ٩ ت الاول ١٨٥٨ ، في ١ ربيع الاول ١٢٧٥

[٤٥٢] ـــ انتها ٣١ وابتدا ٣٢ سنة لافتتاحي المكتب سنة مباركه الله يحيينا لامثالها بجاه اسمه العظيم.

[٤٥٢] ـــ الاثنين ، اجوا الحجاج لاجل ضرب التفنك مسك الباشا مقدار ٢٠ نفر وبعده اخذ مقدار ١٤٠ وبعده بكفاله طالعهم وانعزمت لعرس عازار وابن اختي انطانيوس ـــ والجمعة ، مات بن ميثاك عمره شهر ٥ وبطل عرس عازار.

– السبت ، في ١٦ ت الاول ١٨٥٨ ، في ٨ ربيع الاول ١٢٧٥

واجا صافي القطن بخسارة ٢٥٠ وطالعها الى البر فين.

[٤٦١] ـــ انعزمت الثلاثا لعرس انطانيوس عازار . والخميس مات الياهو

نفوذهم وتأثيرهم السيء لا يزال حائلاً دون سير الاعمال الحثيث . . . ان حالة عاصمة الشمال السوري تصور صورة تركية كما كانت سابقاً لا كما اصبحت في سائر البلاد العثمانية . فان سلطة السلطان ممثلة بحاكم مجبر ختم التنفيذ غيره وفي الامر الواقع ان الادارة الحقيقية كلها في ايدي الاعيان او البكاوات وهم على محاسدة وبخاصمة متداومة في ايهم يفوق غيره جاهاً ونفوذاً. وهب ان للوالي الاخلاص لواجب الوطنية فهو عاجز عن القيام به.

١) راجع الحاشية على الضرائب فيما بعد [٥٣١]

بجوتو وقبروه بالكنيس.

– السبت ، في ٢٣ تشرين الاول ١٨٥٨ ، في ١٥ ربيع الاول ١٢٧٥

والاربعا مطر وافر وسافر حبيب سالم الى ملطية يكون معلوم.

[٤٦٢] ــ الاحد الساعة خمسة رحت عرس انطانيوس عازار وجبنا العروس.

– والسبت ، في ٣٠ ت الاول ١٨٥٨ ، ٢١ ربيع الاول ١٢٧٥

والنجمة غطت وانور بولص اولها خطب الى كارولين مرتين وقالوا الخميس العرس هكذا سمعت وكتبت صورة مريم العذرا لكنيسة السريان وفرقوا بيت الحمصي لحم العجين وكوابيج للفقراء . وانتقلوا بيت جنبرت الى حوش خوري باسيليوس صعب وبطلوا بنات سالم وراحوا لمدرسة البنات وارسلنا مكتوب طلبت اشيا من البر فين: سكر وقهوة وغيره واجا صعب ونعوم بجّاش من الشام.

[٤٦٢] ــ الاحد ، مساء كان عرس اولاد فتح الله اروتين.

السبت ، ٦ ت ت ١٨٥٨ ، في ٢٨ ربيع الاول ١٢٧٥

وولدت بنت عزوز مراة رزق الله بجّاش وجابت بنت.

[٤٧١] ــ الاحد ، كانوا عندنا بيت اختي والعروس مراة انطانيوس وتغدينا مقادم وكبة ورز حلو ــ الثلاثا ، اجت بنت السالم لويزا . ــ السبت ، صليت ، عند الروم بالشرعاسوس.

في ١٣ ت ت ١٨٥٨ ، في ٧ ر ت ١٢٧٥

وكتب فرض الالام عندي ارسلوهم لكي اكليهم واصلحهم وهم بخط القس يوسف اسلامبوليه . واجانا حطب تنطار نصف بسعر ٦٠ ق وفرمنا بقية التتون كله مشروب الهنا.

[٤٧٢] ــ الاحد ، اولها رحنا صبحية بيت العجوري فطرنا جوكولاطا واولاد الشاهر انطوناكي وفتح الله . ويومها نبهوا على غفران الجيوبيليوم عندنا وعند الإرمن ، [لكن] الروم والموارنة لا . ويومها عرس بطرس الحمصي لبنت عمه روزين ــ والجمعة اجا جنتار تماوي من بيروت ضربوا له طواب ١١ وملاقيه كل القناصل والتراجمين واليسقيه ونزله كويسه وانا ما تفرجت وميخايل بن جبرا عرقتنجي مريض... وانتقلوا بيت حنا صايغ الى حوشهم بجارة تقلا.

– والسبت ، في ٢٠ ت ت ١٨٥٨ ، في ١٤ ر ت ١٢٧٥

واجت اخت غزالـه مع اخوها أميليا وبدي يكتب اجير زخور صاجاتي وكتبت مكتوب ٢ الى اصفر والجد وبهنان . والخواتم اجو من باريز كويسات كتير ورحنا صبحية . . . ودرنا كل الباسيلية ـــ والاثنين قمصان ٤/١٠٠ منشاني[1] .

[٤٧²] ـــ الاحـد ، سيدة النجاة ودخولها للهيكل وغفران اجيوبيليوم غربي ـــ الاثنين ، بدت تقرا مراة دير اروتين ـــ الاربعا ، مات ميخايل خودي الله يرحمه وقبروه ـــ والجمعة ، اخذت بخاطرهم .

– والسبت ، في ٢٧ ت ت ١٨٥٨ ، في ٢١ ر ت ١٢٧٥

والسبت سبوع بطرس حمصي الاحـد اولها ورشوحات زايده في كل الناس مرشحين كأن من قبل نجمة ام الذنب ويبس زايد ما في مطر .

[٤٨¹] ـــ الاربعا سافر الجنار النساوي الى بيروت .

– السبت ، في ٤ كانون الاول ١٨٥٨ في ٢٨ ر ت ١٢٧٥

وخفض دكان بقيسرية الزبال وقتل واحد دفنوه عمره ١٧ الله يرحمه وينجينا من ذلك . والاثنين بدي يكتب ابن يوسف خاطي ومات نصري تاج الله يرحمه .

– السبت ، في ١١ ك الاول ٥٨ ، في ٦ ج ١ ١٢٧٥

[٤٨²] ـــ وارسلت مكتوب الى بقجي مع تركماني واجا عبدالله اسيون من اسلامبول يوم الجمعة ومطر ما في ابداً .

– السبت ، في ١٨ كانون الاول ١٨٥٨ ، في ١٣ جمادى ١ ١٢٧٥

[٤٨³] ـــ وانا صمت ان اراد الله بكمل ـــ والجمعة اجا قس حنا وكيل البطرك من الجبل ـــ والاحد اولها اجا حبيب سالم من عينتاب .

[٤٩¹] ـــ الاربعا ، توفي نصرالله مراش رفيقنا بالصيد والعصر مراة يوسف دير اروتين نفسا وولدت وماتت هي والصبي الله يرحمهم .

– السبت ، في ٢٥ ك ١ ١٨٥٨ ، في ٢٠ جمادى الاول ١٢٧٥

وقرضت الى الفلاح براهيم كفرديراني ليره مجيديه عده ٢ وكل الجمعة مطر مبحبح .

---

١) من اجلي

[٤٩^٢] — الاثنين ، بديت تقرا مارو بنت الصاجاتي ويكتب بن عزوز — والاربعا ، اجا سوكياس واجا خبر بن الياس اسود من كلز كيف مات بعد نعرف.

— والسبت ، راس السنة غ ١٨٥٩ ، في ١ ك ٢ في ٣٠ ك ١ ش ١٨٥٨ ، في ٢٧ جمادى الاول ١٢٧٥

ان شاء الله سنة مباركة وفايدة الخيرات ومدرة السرور والبركات.

[٤٩^٣] — الاربعا ، بديت تقرا ميليا مراة فرنسيس.

— السبت ، في ٨ ك ٢ سنة ١٨٥٩ ، في ٤ ج ٢ ١٢٧٥

والسهره بيت الدلال كل الجمعة.

[٥٠^١] — اولها تغديت بيت نعوم سالم مقادم — الاربعاء تعد يوسف سوكياس عندي — الخميس رأس السنة شرقي.

— السبت ، في ١٥ ك ٢ ١٨٥٩ ، في ١١ ج الثاني ١٢٧٥

والسهره عند ضاهر. والخميس واجهت مطران يوسف مطر بالبيت عندهم.

[٥٠^٢] — الخميس ماتت اخت يوسف هندي الله يرحمها. واولها الاحد ، كان هوا بارد شي. يسلخ الوجه وقالوا زلق بن سنان ومات — والجمعة اجا شماس المطران يوسف مطر كتب سطر مشتى.

— السبت ، في ٢٢ ك ٢ ١٨٥٩ ، في ١٨ ج ٢ ١٢٧٥

وارسلنا مكتوب الى فين وموسى التاراس وسهرت الخميس بيت نعوم اسيون واجا الورق والكوكرت من البير فين [من مرسيليا].

[٥٠^٣] — الاثنين غيم وبديت تقرأ مريم كرباج.

— السبت ، في ٢٩ كانون ٢ ١٨٥٩ ، في ٢٥ ج ٢ ١٢٧٥

والخميس اخذت قنطار حطب ٥٧ ونصف. — الاثنين ، غيم وهوا ومسا ثلج قليل. — الثلاثا ، هوا ورد وثلج قليل. — الاربعا ، صحو رايق. — الخميس ، صحو رايق. — الجمعة ، غيم وبرد ومساء ثلج قليل. — السبت ، غيم وهوا وبرد فقط.

[٥١^١] — الاثنين ، بديوا بالرسايل بطق وغزاله وبطرس ودير اروتين وصايغ.

– السبت ، في ٥ شباط ٥٩ ، في ٢ رجب ١٢٧٥

واحترقت بنت الكبابه رزق الله عمرها سنة وشي ، الله يشفيها . غزاله نعوم مريض وارسلنا كتب ٢ الى التاراس وفين والسبت هواء بارد .

[٥١²] – الخميس ، قونصل الفرنساوي بنتي بولير[1] صار جنتار بيروت .

– السبت ، في ١٢ شباط ١٨٥٩ ، في ٩ رجب ١٢٧٥

واخذت مشط عظم ٢٤ .

– السبت ، في ١٩ شباط سنة ١٨٤٩ ، في ١٦ رجب ١٢٧٥

[٥١²] – وغزاله وشوكتلي باسيل ومريم كوباج مرضا .

[٥٢¹] – الاثنين ، بدي يكتب بن جبرا غزال حبيب . وطلب المطران كالة الايجار زوده عن عام اول ٢٠٠ وقالت مراة كوبا ادفعها الخميس دفعتها ١٩٢ .

– السبت ، في ٢٦ شباط ١٨٥٩ ، في ٢٣ رجب ١٢٧٥

وبديوا بالرخام بكنيسة السريان يبلطوا تحت الخوروس ومراة الازرق جابت صبي بنت كبابه ومراة تزوري هلال صبي .

– السبت ، في ٥ اذار ١٨٥٩ ، في ١ شعبان ١٢٧٥

[٥٢²] – والثلاثا ، مراة الازرق جابت بنت بنت الكورنلي وخميس السكارى مع المجروش بستان العويجي وكان حنا سالم ووكيل نصري ، وشعراوي انطون ، وابن العبجي . وكتبت بالنهار القوطة الى برجي ابراهام وسوسه كوبا جابت صبي .

– السبت ، مار افرام ١٨٥٩ ، في ١٢ اذار غ ، في ٨ شعبان ١٢٧٥

[٥٣²] – وخلصوا ساط التاني الصدراني وباقي الوسطاني في كنيسة السريان ومات نعوم مشحور الثلاثا نزل خناقي الله يرحمه .

[٥٣¹] – الاثنين ، بديت تقرا مريم كوباج وقعد عندي بن توتل – الاربعا ، سافروا المقادسه وطلعوا ملاقيه الى قونصل الفرنساوي ما اجا . –

١) وفي ٣١ مارس منها كتب القنصل سكين نومف بنتيوليو قائلاً انه رجل يذكره زملاؤه التنامل بالخير وكذلك سائر الحلبيين ويأسفون لسفره . فانه كان يتعاطى شؤون القنصلية الافرنسية بروح السلام والحزم وعدم محاباة الوجوه . (غره ١٨)

الجمعة ، قالوا ان صار ميري[1] على الذبيب بالمئة ٢٠ وطلبوا الترابيه معامله على الجديد قمري ٥ والطي ٦ ليره ١٠٠ ، مجيدي ٢٠ يكون معلوم.

[٥٣ٌ] — قعد عندي اولاد كوسا باكلهم وشربهم وكراتهم وسالمه بدي يكتب . — والاربعا ، بسافروا حمصي وضاهر فتح الله الى القدس.

---

١) كتب سكين القنصل البريطاني في الوثائق المذكورة سابقاً: البدلية العسكرية هي ضريبة ثقيلة على عاتق المسيحيين لا لمبدئها وهم يقرونه ولكن لتطبيقه فيشكون منها اذا اخذت منهم في السنين التي لا يصير فيها القرعة للتجنيد بينا المسلمون معفون من الخراج. ويشكون ايضاً من عدم التوازن في تقاضي الضرائب من المدن. فكان الخراج في حلب يبلغ ١٠٠٠٠٠ غرش في العام بينا المبلغ الذي يتقاضونه عن البدلية مجموعه ٢٤٠٠٠٠ غرش مرتب دفعه على ١٥٠٠٠ مسيحي و٤٠٠٠ يهودي « بدلاً » عن ٤٨ عسكرياً كل عسكري نفقته ٥٠٠٠ غرش...

الرسومات او الضرائب على مواد الموازين والمقاييس وعلى غير ذلك من المبيوعات سوى التتون يبلغ مجموع ما يتقاضى عنها ١١٣٠٠ . والترابية هي ضريبة ١٥ بالمئة على البيوت ويبلغ مجموع ما يتقاضى عنها ٨٩٠٠٠٠ غرش وكلا المبلغين مضروبان على سائر طبقات الناس في حلب ولا ظلم في وضعها ولا في طرق جمعها، على ان الترابية لا يخلو طلبها من بعض التناقص فانها لا تجمع على طريق الالتزام شأن الرسومات والمواد الكمركية لان مشايخ الحارات يطالبون بها سنوياً وسلفاً . وهؤلاء الموظفون لا يحجمون دائماً عن ضرب البيوت المسيحية بضريبة تتجاوز ما يترتب عليها نسبةً لقيمة الملك بينا انهم يخفضون الضريبة دائماً على املاك اهل طائفتهم. على ان سواد المسيحيين الاعظم يقيم في احياء خاصة ، لهم فيها شيخ الحارة من طوائفهم فيصير عندهم توزيع الضرائب اقرب الى الانصاف وبالغالب لا يتأتى من ثم داع للشكوى .

وهناك ضريبة جديدة وضعت على اساس قيمة المشروبات الكحولية بمعدل ٢٠ بالمئة تؤخذ ليس فقط على ما يتاجر به بالسوق ولكن على ما يحفظ منها في البيوت للاستعمال الشخصي . قد يعفون من الضريبة كميةً منها اعني اقتين على عشر اقق الى ان يبلغ عدد ١٠٠٠ اقة والاوربيون يعفون تحت حكم تلك الضريبة كسائر سكان البلاد . ان في هذه الولاية كثيرين من يقطرون شيئاً من الكحول بعد منعهم الخمرة في يومهم لاستعمالهم العائلي فاخشى ان يؤدي القرار الصادر في امر المشروبات الكحولية الى هضم حقوق الناس من جانب المعهود اليهم بجمع الضرائب . فان مهمتهم بدخولهم بيوت الناس للتحقيق في كمية المشروبات المحفوظة فيها ليست كمهمتهم في تعديل كمية الحب على البيادر ومن ثم الباب مفتوح لمشاكل مزعجة خاصة في هذه البلاد حيث حرمة البيت وكره دفع الضرائب مع وجود روح محاباة الاشخاص بسبب المراقيل في سبيل ذلك القرار.

– السبت ، في ٢٦ اذار ١٨٥٩ ، ٢٦ شعبان ١٢٧٥

[٥٣']

– السبت ، في ٢ نيسان ١٢٥٩ ، في ٢٩ شعبان ١٢٧٥

والخميس صار مطر وتتل تتول على اللحم والخبز رطل الخبز ٤ غروش. وكتبت يسوع النـاصري ملك اليهود وارمني وافرنجي الى عينتاب ليوسف خياط وكمام القميص لمراة دير اورتين . والسبت كتبت بيت ٣ تاليف فرنسيس مراش واولها نبهوا على الحلويات في الكنائس [لكي لا يبالغ الناس باكلها لان السنة كانت سنة ضيق].

[٥٤'] – الخميس ، مطر زايـد كتير وبالليل الله فرجها لان الحنطة[١]

---

١) في ٣١ مارس ١٨٥٩ كتب القنصل سكين :

« البلدة هادئة وافهم بالهدؤ عدم وقوع حركة اضطراب واسعة النطاق لان احياء عديدة في المدينة تتمخض وتلد الزوبعة في الساعة التي لا تتوقعها . انه لحدث جديد في هذه البلاد حيث الفقر قليل ان تحدث فيها الفتنة في سبيل الخبز وذلـك لم نسمع به الى يومنا فان الناس يتزاحمون عند الافران وليس ازدحامهم ما يدعو الى الطمأنينة. لقد ارتفعت اسعار الحاجيات فبلغ شنبل الحنطة ١٠٠ غرش فصار ثلاثة اضعاف ما يجب ان يكون عليه وتضاعفت قيمة اللحم ومع ذلك فلا وجود له في السوق وكذلك السمن وهلم جرًّا الخ . فخيم العوز ليس في بيوت الفقراء فقط ولكن في مساكن العائلات المتوسطة ايضاً ولم تنجح الوسائل التي استعملتها الحكومة لاتقاء الغلاء . لقد استوردوا المؤنة من ادلب وعرضوها في الاسواق وظلت الاسعار على ما كانت . واقاموا موظفاً سعى في الجاء تجار الغنم الى بيع فئة من غنمهم باسعار مقبولة ولكن ادّى ذلك الى المناوشات فرفعت الشكاوي على الموظف لقلة انصافه في المعاملات . ولم يتداركوا امر البدو الرّحل المقيمين سابقاً بجوار البلد فتركوهم يرحلون بما عندهم من اغنام عددها ٥٠٠٠ رأس وزاد ذلك بالغلاء.

ان حسن السياسة والمعاملة مع العرب لامر حيوي لحلب ولسائر المدن الواقعة على حدود البادية . لقد حاولت السلطة ان تكبح جماحهم منذ سنتين بقوة العسكر النظامي ونجحت بمساعاها لكنها ألحقت بذلك ضررًا بالمدينة لان العرب رحلوا ولم يدخلوا بالمعاملات التجارية التي كانت تعود على حلب سنوياً بربح ٥٠٠٠٠ ليرة انكليزية . فلم يبتاعوا الحب ومضوا باصوافهم والبانهم وانعامهم الى غير اسواق.

في العام الماضي اتخذ الوالي خطة مخالفة للتي ذكرناها فنح زعماءهم رواتب العسكر الغير النظامي مما عاد على البلدة بحركة تجارية عوضت عن السنة السابقة ولكن العرب تشجعوا

وصلت الشنبل ١٠٠ ما في والخاروف غرش ١٠ والسمنه ٤٠ والجاجه ١٠ والخبز ٤ ونصف الرطل فالله فرجها بالمطر ورخص كل شي.

– السبت ، في ٩ نيسان ١٨٥٩ ، في ٧ رمضان ١٢٧٥

الاثنين ، لموا مقدار الف ٢٥ [غرشاً] الفرنساويه لاجل بستان الى الكونت الذي كان موجود بحلب واخذوا بوابه البستان الف غرش من الحمايات الذي هو سوريته [sureté] ١٠٠٠ والحمايه ٥٠٠ مثل يوسف شوكتلي ١٠٠٠ انطوناكي ضاهر ٥٠٠ يكون معلوم.

[٥٤] ــ الاثنين ، صارت العزيمة ببستان بيازيد الافرنج ونوبة موزيقه العسكر ... وسنيور موسى عمال يعمر حوش بالشابندر ورفع ليوان والبناؤون عمال يشتغلوا.

– السبت ، في ١٦ نيسان ١٨٥٩ ، في ١٤ رمضان ١٢٧٥

[٥٤] ــ الاحد شمانين ورحت دورة العزارى وما كان نسوان والاثنين سمعنا بان بأرزروم صار كاثوليكيه الف ١٠ مسلمين وتعمدوا وقبلوا الايمان وايضا ان طربلوس قاموا الاسلام على بعضهم بعض وقالوا صار مقتله وراح من حلب عسكر للمساعدة وقالوا ان بعد عيد الاسلام بدهم ياخذوا قرعة من حلب.

[٥٥] ــ السبت ، بـدينا الشهر المريمي عندنا بالبيت بقسم من الوردية وانعزمنا لعرس ابن ابن عمي فتح‌الله بخاش رزق‌الله وان اراد الله اروح. وصار خبر من نبوه البابا انوسنسيوس ان متى مـا صادف تاني العيد مار مرقس وتاني العنصرة مار انطانيوس وميلاد يوحنا قبل عيد الجسد تحرق سلامبول وبر الشام ونواحيها ويسقط ملوك ثلاث الله ينهيها على خير.

– السبت ، ٢٠ نيسان ١٨٥٩ ، في ٢٨ رمضان ١٢٧٥

واخذنا جبنه رطل سعر ٩٤ ونظفنا برقتها كمك وطلعت مليحه وماكول الهنا ان كان الله يريد ويتمجد اسمه وجاب كبار القاطرجي جاج ٣ غرش ١١ من طرف عينتاب. (لها صلة)

وتجاسروا وصاروا يشلحون القافلات فاستدعى الوالي اليه زعيمهم فدعان وعامله بالاكرام وصالحه ورده الى البادية على ان يرجع منها باموال العرب فيعرضها في سوق حلب وتنفرج الازمة.» (عن سجلات القنصلية)

مطبوعات شرقية جديدة

Paulus Trugly, s. j., Cognitio divina de objecto indeterminato. In-16, 92 pp. Budapest, 1937.

المعرفة الالهية لما هو غير معيّن

يعلم اللاهوتيون ما عرضه مولينا وارباب مذهبه من آراء في التوفيق بين علم الله والحرية البشرية لخصتها جملة «العلم الوسيط» (scientia media) . وها ان الاب تروكلي يبرّز بدوره، مدفوعاً باسباب عديدة يعرضها في هذا الكتاب، علماً آخر يدعوه «العلم المتوسّط» (scientia intermedia) وهو علم الله بخليقة معدّة لتكون ولكنها لم تكن بعد كوناً تاماً . ولا يخفى ان اكثر القرّاء يحذرون من طريقة جديدة تستند الى تخريجات وتمييزات واهية في مشكل عويص كان العقل البشري ولا يزال اعجز من ان يطمع الى محاولة حلّه . . .

ب · م ·

Mgr Tihamer Toth, Le Symbole des Apôtres. Cinquième partie, *Le Saint Esprit, la Sainte Église Catholique.* Sermons prononcés dans l'Église de l'Université de Budapest. Traduits du hongrois par l'abbé Marcel Grandclaudon. In-8°, 356 pp. Mulhouse, Salvator, 1938. Prix : 20 fr.

قانون الايمان : القسم الخامس

احسن مترجم هذا الكتاب بما توفق اليه من نقل مواعظ المؤلف بلغة فرنسية سهلة رائعة حفظت جمال الأصل، دالّة على ما اتصف به سيادة الخطيب من عمق تبحّر في العقائد، وبعد نظر في الآراء الاجتماعية الحاضرة، ولا سيما في العشرين عظة التي خصّها بالكنيسة ورأسها المنظور الحبر الأعظم .

ب · م ·

Mgr Tihamer Toth, A la Jeunesse Catholique. Le caractère du jeune homme. Traduit du hongrois par Mme K. de Mariassy. In-8°, 240 pp., Mulhouse, Salvator. Prix : 15 fr.

نصائح الى الشبيبة الكاثوليكية

وهذا ايضاً من آثار المطران تُوث خصّه بالشبان، محتماً بما يوافق تنشئتهم،

ويقودهم على خير سبيل ، الى تعزيز الارادة ، والجهاد في تحقيق غايتهم السامية من هذه الحياة بالقيام بواجبهم مهما يكتنفه من صعوبات ومماكسات . كل ذلك باسلوب سهل رشيق تزينه الامثلة العديدة . ه. بويار

CAESARE CARBONE, **Praxis ordinandorum**, ea omnia potissimum complectens quae clericis scitu necessaria seu utilia habentur. Editio tertia. Turin, Marietti, 1937. Prix : L. 10.

مختصر المبادئ للطلبة الاكليريكيين

انتشر هذا الكتاب في بعض البلاد فبلغ طبعته الثالثة ، مفيدًا الكهنة والمتدرّجين بما يجمعه من واجبات كل من اصحاب الدرجات الكهنوتية . بيد ان طريقته التعليمية تظهر لنا على شيء من الغرابة . وذلك ان المؤلّف ، وهو يكتب لطلّاب الاكليريكيات العالية يستعمل ما يستعمله مؤلّفو التعاليم المسيحية للصغار من اسئلة واجوبة . ولقد كان في وسعه ان يتبع الاسلوب العادي في المؤلّفات التعليمية اللاهوتية .

FIORENZO ROMITA, **Jus Musicae liturgicae**. Dissertatio historico-iuridica. In-8°, XXVIII+320 pp. Turin, Marietti, 1936. Prix : L. 15.

في الموسيقى الليتورجية

كتاب جزيل الفائدة للكهنة وسائر الاكليريكيين . يدرس الاناشيد الكنسية درسًا قانونيًا ، مفصّلًا الاناشيد التي رُخص باستعمالها في القرون الخالية ذاكرًا اشهر اوامر الاحبار الاعظمين في هذا الشأن ، وما هي الشواذ والتطرّفات التي رمت الى اصلاحها . ثم يعرض القاعدة التي يجب ان تُطبّق في اختيار النصوص الطقسيّة ، وفي إعداد المرتّلين ، واستعمال الأرغن وغيره من الآلات الموسيقية . وكلّها من المسائل المهمّة التي يسرّ المطالع ان يرى عنها اجوبة واضحة مدقّقة .

أرمان بوليو

Missale pro defunctis. Edition de 1922, petit in-4° (28×20 cm.) rouge et noir. Broché : 5 L. Relié : 9 L. Turin, Marietti, 1937.

كتاب القدّاس

مظهر هذا الكتاب واضح شائق ، وقراءته سهلة ، وثمنه من الرخص بحيث

يسهل اقتناؤه . وهو مثل من طبعات ماريتي الحجرية الجميلة التي يُقبل عليها كهنة اللاتين إقبالاً في محلّه . ا. ب.

Basilio Steidle, o.s.b., Patrologia seu Historia antiquae litteraturae ecclesiasticae. Fribourg en Brisgau, Herder, 1937.

تاريخ الآداب الكنسية القديمة

من افضل ما يفيده هذا الكتاب الجديد في اعمال الآباء. ما يعرضه من المصادر الكثيرة التامة ، في اكثرها ، حتى ايامنا . هو لا يغني عمّا سبقه من مؤلّفات في الموضوع ، أوسع منه في عرض العقائد ، واقرب الى اظهار جهود الآباء في تاريخ تطوّر هذه العقائد، ولكنه يتمّمها بما فيه من معلومات واشارات الى احدث الدروس الظاهرة في الموضوع بمختلف اللغات . اما اخراج الكتاب فظاهرة فيه العناية ، على رغم بعض الاخطاء المطبعية التي قدلا يخلو منها مؤلّف من هذا النوع . ولنذكر منها خطأً تكرّر في الصفحة ٣٥ وفي الصفحة ٢٩١ في جدول الاعلام ، وهو اسم الاسقف بوتين(Pothin) من ليون، فانه ذُكر مرّتين على صورة فوتينوس (Photinus) . ولا شكّ ان مثل هذه الهنات تُتلافى في طبعات مقبلة ستكون قريبة لما سيصادف الكتاب من رواج.

ل. اسكولا

Leon Chevreuil, Le Spritisme de l'Église. In-16, XIX+315 pp. Paris, Meyer, 1937.

Ernest Bozzano, Les phénomènes de bilocation. In-16, 188 pp. Paris, Meyer, 1937.

كتابان في السبيريتسم

يظهر هذان الكتابان من سلسلة مؤلّفات في « الفلسفة الروحانية العصرية والعلوم النفسانية » . وليس فيهما ما يتوهمه المؤلّفان من اسلحة قاطعة ضدّ المذهب المادّي . فلا نستغرب اذًا موقف الكنيسة الحازم تجاه هذه المحاولات ، غير الموفّقة ، الرامية الى المقابلة بين روحانية القديسين ومعجزاتهم ، وما يقوم به الوسطاء ومستحضرو الارواح من مظاهر غريبة يتبسّط المؤلفان في وصفها والتعليق عليها بكل لذّة واعجاب . . . ب. م.

FRANCIS TALBOT, S. J., **Un saint parmi les sauvages.** Traduit de l'Anglais par Mme VIÉVILLE. In-8°, 316 pp Paris, Spes, 1937. Prix : 15 fr.

قدّيس بين المتوحّشين

لا يضجر المطالع من غرابة الانشاء في الفصل الاول من هذا الكتاب. فما ذاك الّا خطوة صعبة اذا ما خطاها انتقل الى مجالٍ سهل يتمتّع فيه بروعة هذه الحياة العجيبة. لم يكن للقدماء ما نراه لبعضهم في زماننا من اهتمام بجمع شؤونهم حتى التافه منها، ومن حرص على ان يعرف الخندة والذراري كل ما يتعلق بحياتهم من تفاصيل ودقائق. ولهذا لم يترك لنا المتقدّمون الشيء الكثير عن حياة نوابغهم الشخصية، فكيف بحياتهم الداخلية والروحية! فلا عجب ان لا نرى، في هذا الكتاب، شيئاً جديداً عن حياة القديس اسحق جوغ. بيد ان فيه جوًّا جديداً يكتنف كل ما نعرفه عن حياة البطولة التي قضاها. فتظهر تلك الغابات المتتابعة الى ما لا نهاية له، وتلك البحيرات، والانهر الواسعة المتسارعة المجاري، والبيئة البشرية... ابناء الهيرون التي كانت المعمودية تؤثر فيهم تأثيراً عجيباً. وابناء الإيروكوا الذين قُتل الشهيد بضرباتهم الهائلة فقضى من اجلهم. حتى اذا انهينا الكتاب، خرجنا منه، وملء جوانحنا الاعجاب بهذا القديس والميل اليه.

جوزف ميري

MARGUERITE CSABA, **La vie en fleur.** 1e partie : Ce qu'une adolescente du XXe siècle doit savoir. Adapté du hongrois par MARIE FRONCŒUR. In-8°, 228 pp. Mulhouse, Salvator, 1938. Prix : 15 fr.

نصائح الى المراهقات

نال هذا الكتاب شهرة واسعة في بلاد اللغة الالمانية. فنُقل الى الفرنسوية ببعض التصرّف، بعد ان قدّم له الاسقف توث. اما موضوعه فيُفهم من عنوانه كما تُفهم كذلك اهميته وفائدته للوالدين وللمراهقات من الفتيات. فهو دليل امين ومشير ثقة للفتاة في اوقاتها الصعبة. وان يكن لنا ما نأمله فهو ان يستفيد من هذا العمل المخلص، الذي قامت به امرأة طبيبة، اكثر ما يمكن من فتيات اليوم وامهات الغد.

Ordo divini officii recitandi sacrique peragendi iuxta Kalendarium Ecclesiae universalis pro anno Domini 1938. In-8°, 140 pp. Turin, Marietti, 1937. Prix : L. 3.

نظام تلاوة الفرض الالهي في العام ١٩٣٨

لا يخفى ما يفيد الترتيب الزمني المتّبع في الكنيسة جمعاء، فضلًا عن الترتيب المحلي. وهو ما اخرجته مطابع ماريتي، مضيفةً في المقدّمات، او في الروزنامة الطقسية، اشارات كثيرة الى اعمال جمعية الطقوس وغيرها من القرارات الرسمية في الموضوع.

ا. ب.

Annales de l'École des Hautes Études de Gand, I. Études d'Archéologie romaine. In-4°, 235 pp., 9 pl., 72 fig. Gand, 1937. Prix : 50 fr. belges.

دروس في الاثريّات الرومانية

يسرّ المطالع البيروتي ان يقرأ هذا المجلّد. فيتحقّق ان في مدرسة العلوم العليا، بمدينة غاند، معهدًا يشبهه — ولو عن بعد — معهدنا البيروتي لتدريس الآداب الشرقية الذي يتابع محاضراته منذ السنة ١٩٣٣. ويرى كذلك في الدروس المنشورة شبيهاً لما نشره «المشرق» ملخصاً بعض محاضرات المعهد المذكور كدرس الاستاذ ڤييت في اصول الفنّ الاسلامي مثلًا (المشرق ١٩٣٦: ص ٤٨١).

اما هذه الدروس فقد رمى مؤلّفوها الستة الى ايضاح بعض المشاكل الظاهرة حديثاً في علم الاثريّات الرومانية. من ذلك عمل الاستاذ كوكوينو في تحديد الدور التاريخي الذي مثلته كليوباترا ملكة مصر الشهيرة، وتزييف ما علق به من الاساطير. ومن ذلك ايضاً ما قام به بعض الشبان من الاساتذة في وصف هركولانوم وفقاً للحفريات الاخيرة، وشرشل ومتحف الملك يوبا الثاني، ومسارح ليون الرومانية. يأتي بعد ذلك بحثان يتعلّقان بالاثريات السورية. وهو ما يسرّ المطالع البيروتي ايضاً. وقد تقدّم للمشرق (١٩٣٤: ص ٥٨٨) ان وصف وصفاً اجماعيًا التصاوير المسيحية الراقية الى ما قبل السنة ٢٦٠، المكتشفة في دورا-الصالحية على الفرات. وفي هذا المجلّد يدرس الاستاذ سيتون التصاوير نفسها

فيرى فيها تلميحات عـدَّة الى شعائر الطقس ، والمعتقدات المتضمّنة في قانون الايمان ، وهو ما يوافق تزيين محلّ العماد في كنيسة من اعرق الكنائس قدماً . وهناك بحث للاستاذ كاجيه خصّه « بالمظاهر الحديثة لافريقية المسيحية » اشار فيه الى الأثر الشرقي الظاهر في تصميم الكنائس الافريقية ، وهو تصميم سوري محض ، ظهوره في رسوم الفسيفساء ، بل في طريقة توريق الجدران ايضاً .

ر . م .

MAHMÛD MUHTÂR-KÂTIRCIOGLÛ, The Wisdom of the Qur'ân. The english Translation by JOHN NAISH. In-8°, LX+146 pp. London, Humphrey Milford, 1937. Prix : 5 sh.

حكمة القرآن

تقدّم لنا وصف هذا الكتاب عندما ظهر بنصّه الفرنسوي الاصلي . ولما لم يكن من جديـد في هذه الترجمة الانكليزية فقد رأينا ان نحيل القرّاء الى الوصف السابق (المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ٤٥٢)

JEAN BAZ, Essai sur la fraude à la loi en droit musulman. Préface de Mr le Professeur Roubier. In-8°, Librairie du *Récueil Sirey*. 1938.

محاولة في درس الحيلة على القانون

هذا المؤلّف هو الاطروحة التي قدمها صديقنا جان باز لمعهد الحقوق بمدينة ليون فنجح نجاحاً باهراً ونال لقب دكتور بالحقوق مع علامـة جيد جدّاً (avec éloges spéciales) . وقد افتُتح الكتاب بمقدمة من حضرة الاستاذ روبيه ، مدير معهد الحقوق في بيروت سابقاً ، واحد اساتذة معهد الحقوق في ليون حالياً ، وهو من علماء القانون الاعلام بفرنسـة .

ولا عجب اذا كان المؤلّف نال هذا النجاح فقد عهدناه ، وهو احد تلامذتنا القدماء . في مكتب الحقوق ببيروت ، طالباً مجتهداً ذكياً كان دوماً في مقدمة رفقائه . ومن ثمّ ، عندما تعاطى مهنة المحاماة ، ما زال منصرفاً للدرس والتنقيب فوضع كتاباً في امور القضايا المستعجلة ، وفهارس ابجدية لقانون الموجبات والعقود والمحاكمات المدنية .

اما الموضوع الذي خاضه في كتابه الجديد فله من الوجهة النظرية والوجهة العملية اهمية كبرى في الشريعة الاسلامية. وهو معلوم ان الشرع باعتبار صفته الدينية، وكونه مؤسساً على القرآن والحديث، لم يتحمل مبدئياً التغير والتبديل وفقاً لمقتضيات العصور والبيئات المختلفة التي انتشر فيها، فارغم الناس، ازاء قواعد كثيرة غير منطبقة على ضرورات الزمان والمكان، ان يحتالوا على هذه القواعد ساعين في اجتنابها بطرق شتى هي بحد ذاتها طرق شرعية ولكنها ترمي بالحقيقة لمخالفة قاعدة شرعية. وهذا ما يسمونه الحيل الشرعية. فالاستاذ باز قد درس هذه الحيل في مختلف نواحيها، فكرّس فصلاً اوّلياً للحيل الشرعية المستعملة في الحقوق المالية كالشفعة والوقف، وفصلاً ثانياً للحيل الشرعية المستعملة في الحقوق الشخصية كالنكاح والطلاق. وفي قسم آخر من كتابه، درس الحيل الشرعية المستعملة فيما اسماه المؤلف «الشرع الاسلامي الدولي» اي فيما يختصّ بالعلاقات بين المسلمين والغير المسلمين. وفي القسم الثالث والاخير من الكتاب قام المؤلف بعرض عام لنظرية الحيل الشرعية في بعض البلاد الاجنبية كفرنسة وايطالية واسبانية الخ.

فذكر هذه المبادئ العامة التي درسها المؤلف بشروح وافية، والتي لا يمكننا ان نفصلها بهذه الاسطر الضيقة، تكفي لتدلّ على اهمية الموضوع والفائدة التي ترجى من مطالعة هذا الكتاب القيّم. اميل تيان

Mīrzā Muḥammad ibn ʻAbdu'l-Wahhāb-i-Qazwīnī, **The Ta'rikh-I-Jahân-Gushâ of ʻAlâ' Ud-Dîn ʻAtâ Malik-I-Juwaynî.** Part III. «*E. J. W. Gibb Memorial*» series XVI, 3. In-8°, XVI+ي+٥٩٢ pp. London, Luzac et C°, 1937.

تاريخ جهانكشاي

هو المجلّد الثالث من تاريخ جهانكشاي لعلاء الدين الجُويني المؤلّف سنة ٦٥٨ للهجرة (١٢٦٠ م) عرض فيه لتاريخ منكوقان، وهولاكو، والاسماعيلية. وقد ضبط نصّه، وقدم له بالفارسيّة، وعلّق عليه بعض الحواشي ووضع فهارسه الاستاذ محمد بن عبد الوهّاب قزويني. ثم مهّد له بالانكليزية الاستاذ دنيسون

روس . فظهر الكتاب في مجموعة جيب التذكارية على غاية ما يمكن من الدقة والوضوح .

JULIAN OBERMANN, **The arabic original of Ibn Shâhîn's Book of Comfort.** *Yale orientale series*, Researches, XVII. In-8°, LIX+188 pp., 156 pl. Paris, Geuthner, 1933.

الاصل العربي من كتاب في الفرج لابن شاهين

هـذا اثر من اجتهاد المستشرق أوبرمان . يحتوي على الأصل العربي من كتاب « في الفرج بعد الشدّة » لابن شاهين ، منشوراً مرّتين اولاً بالطبع ، وثانياً بالتصوير الشمسي لصفحات المخطوطة العبريّة الحروف . وقد حفل الكتاب بذكر المصادر المختلفة ، والفهارس للاعلام الشخصية والمكانية ، وبعض المفردات العربية والعبرية ، مع مقدّمة جامعة باللغة الانكليزية . فاتى تحفة طبعيّة جزيلة الفائدة .

E. DRIAULT, **La Question d'Orient 1918-1937. La Paix de la Méditerrannée.** In-8°, 538 pp. Paris, Alcan, 1937. Prix : 50 fr

المسألة الشرقية ١٩١٨–١٩٣٧

عرف المؤلّف بكتاب اوّل ارّخ فيه المسألة الشرقية ، ونشره بالطبع سنة ١٩٠٨ ، فراج رواجاً دفعه الى تجديد طبعه مرّات . وها هو يردفه اليوم بكتاب جديد يتابع فيه البحث نفسه ، مع شيء من التبديل . ذلك انه يُدخل في المسألة الشرقية مشكلة البحر المتوسّط ويبالغ في تأثير هذا البحر حتى انه يرغب ان يسمّي الحرب العالمية الاخيرة « حرب البحر المتوسّط » (ص ٣٧) وهكذا ظهر الموضوع الاول ، اي المسألة الشرقية ، غارقاً في كثير من المشاكل العصرية . فتربرج التأليف ، وكان لا بدّ من بعض الاخطاء والاوهام ، على رغم ما في الكتاب من معلومات دقيقة ونظرات مصيبة . من تلك الاوهام قول المؤلّف (ص ١٦) ان معاهدة كاينارجي ضمنت للروس الانتداب الديني على ارثوذكس تركية ؛ وقوله (ص ٥٢) ان القديسين كيرلس ومتوديوس عملا في سبيل الارثوذكس . وزعمه (ص ٧٣) ان سكة حديد بغداد نقلت الحرب الى قلب المشرق في ابتداء معارك سنة ١٩١٤ . وكذلك القول عن بعض المجازفات في

الاحكام البادية على كثير من التسرّع . بيد ان الكتاب مفيد لمن لهم اطلاع كافٍ على مشاكل الشرق المعاصرة. ج. ل.

Les ressources minérales de la France d'Outre-Mer. V, Le Pétrole. In-8°, 264 pp. Paris, *Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales*, 1937. Prix : 45 fr.

موارد فرنسة المدنية في ما وراء البحر : البترول

اشترك عدد من الاختصاصيين ، بعناية السيد دي سيزانكور ، في تأليف هذا المجلّد الخامس من « موارد فرنسة المدنية في ما وراء البحر». وقد خُصّ بدرس مشروع مهمّ ، وان لم تظهر ثماره حتى الآن ، وهو التنقيش في اراضي المستعمرات الفرنسوية ، عن ذاك الوقود العجيب ، ذي التأثير البليغ في اقتصاديات البلاد زمن الحرب وزمن السلم . امّا بوادر الأمل بالاكتشاف فقد ظهرت في مراكش ، ولكن بكمّية طفيفة . وكذلك القول عن مشروع الجزائر . وفي افريقية الوسطى ومدغسكر آمال بوجود شيء من البترول . اما افريقية الغربية وجزر الأنتيل فلا توحي بأمل ما . هذا ملخّص النتائج التنقيشية عن هذا السائل الثمين . بيد ان لفرنسة تعزية بما لها من نصيب في بترول العراق ، ومن أمل باكتشاف شيء من ذلك في الجزيرة العليا . ولا يجوز ان يتخلّى المنقّش عن هذا الأمل الّا بعد الجهود الطويلة المرتّبة ، وبعد ان ينفي الاختصاصيون بعلم طبقات الأرض امكان وجود البترول في البقعة المعيّنة.

ب. م.

Jules Bertaut, **1848 et la Seconde République.** In-16, 450 pp. Paris, Arthème Fayard.

١٨٤٨ والجمهورية الثانية

يحقّ للمؤلّف كثير من المدح لما يحتوي كتابه من معلومات جديرة بالذكر ، كما يحقّ له قليل من اللوم لما لا يحتوي كتابه من معلومات جديرة بان تكون فيه .

يوضح الكاتب ما كان في فرنسة من اوهام صبيانية سنة ١٨٤٨ ، وكيف قادت هذه الاوهام الى تلك الفواجع الأليمة . وهو مصير طبيعي لكل شعب

يغذيه تادُته بالآمال التي لا يمكن ان تُحقق حتى ينقلب عليهم ، واذا اصدقاء الأمس اعداء اليوم . واذا ذوو الآراء السمحاء ، والنيات الصالحة ، وقد اضطربت ارادتهم فتردّدوا وقت العمل ، يتراجعون حتماً امام من يعرفون ما يريدون فيصلون الى غايتهم من تقلب الاحوال ، كما حصل للبرنس لويس نابوليون. كلّها عِبَر يجدر بالجميع ان يعتبروا بها . بيد ان فوقها عبرةً سامية يستفيدها الانسان اذا ما نظر من علُ الى تلك الاضطرابات التي تثيرها الاهواء الشخصيّة فتضحي، او تكاد ، براحة مجتمعات وشعوب بكاملها في سبيل منفعتها الخاصّة. وان فوق الجميع عدالةً شاملة لا تلبث ان تعيد المياه الى مجاريها فتنيل كل ممثل على مسرح العالم نصيبه من الجزاء ، وان كان هذا النصيب خفياً عمّن لا يرون حوادث التاريخ الّا بعيونهم المادّية.

غ. نيرون

JACQUES HÉRISSAY, Les Pontons de Rochefort. In-12, 184 pp. Paris, Perrin.

في منفى روشفور

هذا ملخص لكتاب ضخم للمؤلف نفسه في الموضوع نفسه ، ظهر سنة ١٩٢٥ . وقد رأى ان يختصره على طريقة واضحة شرح لنا فيها جلّ ما يجدر بنا معرفته عمّا نال الكهنة الفرنسويين من عذابات واضطهادات في منفاهم الى روشفور ، مدة الثورة الفرنسوية الكبرى . وليس اروع من المشاهد التي تصوّر حياة هؤلاء الشهداء . فان مظاهر صبرهم ، واستسلامهم للمشيئة الالهية ، وغفرانهم لجلاديهم والمسيئين اليهم تتفوق كل مدح وتقدير . وما القول عن القرار الذي اتخذوه جميعهم « بان لا يلبّوا رغبات الفضوليين ... ، ولا يجيبوا عن الاسئلة التافهة ... وان يتحمّلوا عذاباتهم بصبر دون ان يشرحوا تفاصيلها ، او يظهروا اقلّ تذمّر منها ، او اقلّ حقد على من قام بها او كان آلة لتنفيذها.»

ولا يخفى ان دعوى ١٠٢ من هؤلاء الشهداء قد عُرضت على رومة ، وليس من شكّ في نجاحها.

غ. نيرون

E. Herriot, **Lyon n'est plus.** T. I, Jacobins et Modérés. vol. (19×12), 410 pp., 1 carte et 1 plan hors-texte. Paris, Hachette 1937.

لم تبقَ ليون

ليس المؤلَّف الظاهر بهذا العنوان الغامض خدعةً لاهية، ولا نبوءة غريبة. ان هو الّا كتاب تاريخ، وتاريخ دقيق. يتناول فيه السيد ادوار هريو تاريخ مدينة ليون على عهد الجمعية الوطنية زمن الثورة. فيبدأ، في هذا المجلّد الاول، بتفصيل اصول ذاك الخلاف الذي اثار مدينة ليون على «الجبليين» من اعضاء الجمعية الوطنية، وانتهى بفشل المدينة. ومن هنا عنوان الكتاب المشير الى قرار تشرين الاول القاضي بهدم المدينة بقوله: «... لقد شهرت ليون الحرب على الحرّية، فلم تبقَ ليون...»

هو كتاب كثير المعلومات مشحونها حتى الغموض. تزاحمت فيه الحوادث حتى اصبح من الصعب، في ذاك التراكم، ان نقرّ الاحداث في تاريخها الحقّ، وان نقف على تسلسلها وتأثيراتها. فوق ما فيه من استطرادات طويلة بعض الاحيان. ذلك ان السيد هريو لم يبقَ له اليوم من الوقت والراحة ما يمكنه من العودة على كتاباته، فاصلاحها، فاخراجها تامّةً على نحو ما عهدناه في «مدام ريكاميه واصدقائها».

بيد ان الكتاب الحالي ملء بالحوادث، والمعلومات، والنصوص، يعرضها الكاتب بكل أمانة، غير هيّاب ان يُطلع على الحوادث والنصوص التاريخية مَن لا يشاطره الرأي والنزعات.

وان يكن هذا الاضطراب في التأليف الذي اسفنا لوجوده يفقد الكتاب شيئاً من سهولة المطالعة لمن يريد الدرس والحفظ، فقد يزيده حياةً وحركةً، بحياة تلك الجماهير المختلجة، المضطربة، المتردّدة، الهائجة دفعةً واحدة. وفي كل صفحة بل في كل مقطع وجوه جديدة تتقابل، وتتمايل، وتتزاحم، منها الخافت الناصل المضطرب باضطراب الاهواء، ومنها البارز القويّ المظهر في اعماله الشائنة. اما الابطال فلم يبرزوا من جمهور القوم في هذه الأيام، ولم يظهروا الّا على عتبة القبر.

والخلاصة ان الكتاب حيّ يشعر مطالعوه ، حتى اقلهم إلماماً بموضوعه ، بأنه صوّر الحقيقة.

ج. ميدي

MARCEL DÉAT, Le front populaire au tournant. In-16, 132 pp. Paris, Éditions du Journal « La Concorde », 1937.

الجبهة الشعبية في المفرق

صاحب هذا الكتاب من اشدّ المناوئين للاحزاب اليمينية. على انه لم يكن راضياً عن تجربة « الجبهة الشعبية » في حكومتَي بلوم وشوطان. فقام على مساوئ الاشتراكية باللهجة العنيفة التي يقوم بها على الفاشستية ، وارباب الآراء المحافظة. مدفوعاً ، في كل ذلك ، بالتفتيش عن دواء الحالة الحاضرة التي لا يرى فيها الّا الداء الاقتصادي. اما هذا الدواء ، فهو، في نظره ، لا مراقبة الاسعار والتبادل، بل طريقة في الاقتصاد الموجّه تقوم بها الدولة فتراقب المصارف والاسعار والتجارة الخارجية دون ان تلغي الملكية الخاصة. وكلّها اساليب قد تكون لها منفعتها الحالية ، ولكنها أبعد من ان تكوّن دواء حاسماً.

ب. م.

LOUIS R. FRANCK, Démocraties en crise. Roosevelt, Van Zeeland, Léon Blum. In-12, 80 pp. Paris, Rieder, 1937. Prix : 6 fr.

أزمة الديموقراطيات

هذه مجموعة محاضرات القاها المؤلّف في شهر آب ١٩٣٧ ، بمعهد الدروس الدولية في جنيف . وقد اجتهد في الوصول الى كل مـا هو وطنيّ خاصّ في المشاكل التي يدرسها ، اميركيّاً كان او فرنسويّاً ، او بلجيكيّاً. واذاً فلا يرى المطالع المتوسّط الثقافة ما يصبو اليه من أحكام جازمة ، وتقديرات مطلقة . بيد ان الكتاب جزيل الفائدة لأن الباحث لا يتوقف لدى ظواهر الإصلاحات المديدة التي تدّعي الديموقراطيات المذكورة القيام بها . فهو لا يهتمّ منهاج بلوم مثلًا ، ولا برامج غيره من رؤساء الحكومات. انما يتوقّف لدى النتائج المحسوسة لهذه المناهج ويلاحظ ، في ختام بحثه ، ان اسلوب ادارة رؤوس الاموال قلّما تغيّر، وان يكن قد تطوّر احياناً ، فان تطوّره كان، لسوء الحظّ، في سبيل إضعاف

الصناعة المتوسطة ، وارباب المهن الصغيرة . ولكن على رغم الفشل البادي في المحاولات الديموقراطية الثلاث ، فان المؤلف يظلّ متعلقاً بمبدأ الحرية الذي طالما ضحّت به بعض الاساليب الحكومية ، وهو يشكر للديموقراطية محافظتها عليه.

Robert Maistriaux, **Les Humanités Classiques et l'Humanisme Chrétien.** In-8°, 68 pp. Bruxelles, Éditions de la Cité Chrétienne, 1937. Prix : 4 fr.

علم البيان المدرسي والثقافة المسيحية

غاية كاتب هذا الكرّاس ان يدرس ، من الوجهة المسيحية ، قيمة الثقافة اليونانية - اللاتينية التي تُثقف بها اذهان الشبيبة . وهو ، مع اقراره بتفوّق طريقة التهذيب بتدريس اللغات القديمة وعملها الصالح على تهذيب العقل ، وتقويم الاحكام الذهنية ، يرى في هذا «البيان» القديم خطرين قد لا يكونان وهميّين: اولها صرف الانتباه الى تغذية العقل وحده على اسلوب قد يجحف بحقّ سائر المواهب النفسية . والثاني تعويد الطلّاب شيئاً من الاحترام التقوي متعلقاً بالاساليب الخارجية فقط . واذاً فالمؤلف يطالب ، باسم الفلسفة المسيحية في تهذيب الرجل الكامل ، بان يُصرف اهتمام اوفى لترويض الجسم ، وتهذيب الشعور ، مع العمل على احياء الروح الاجتماعية في الناشئ . لأن « عقل » الفيلسوف الرواقي المترفع لأعجز من ان يبلغ سمو « المحبة » المسيحية.

ولا شك في منفعة هذا البحث لجميع من يهمّهم امر التربية والتعليم ويرون من واجبهم ان يطّلعوا على كل ما من شأنه ان يسهّل عليهم مهمّة تنشئة رجال كاملين.

بول ميش

K. Goehri, **La Composition Française des élèves et étudiants de langue étrangère.** In-8°, 404 pp. Lausanne, Spes S. A. (Suisse), 1937. Prix : 5 fr. suisses.

تعليم الانشاء الفرنسوي للطلّاب الاجانب

ليس من السهل ان يعلّم الطالب الاجنبي عن اللغة الفرنسوية ان يكتب بهذه اللغة لا باسلوب صحيح فقط ، بل بانشاء رشيق جذّاب . ولهذا رأى المؤلف ، وقد زاول هـذا التعليم في زوريخ مدة خمس وعشرين سنة ، ان

يلخص مبادئ طريقته التي نجح بها في تعليم الطلاب الالمانيين . عرض اولاً آراءه في الطرق التمرينية لاصلاح الانشاء . وهي تلخص بالانصراف عن اساليب التجميل الابتكارية التي كثيرًا ما يُدفع اليها المتجددون في درس اللغة ، وبالانكباب على درس المؤلفين المدرسيين ، مع الاهتمام بتحليل تعابيرهم وتراكيبهم ، والانتباه لمواقع مفرداتهم . ثم اورد نحو المائتين من فروض الطلاب مبرهنًا عن نجاح طريقته . وليس افضل من التمرين ، على يد استاذ ماهر ، للوصول الى امتلاك لغة كالفرنسوية مرونةً ودقة تعبير .

ب . ميش

Ferdinand Gohin, **La Fontaine.** Études et recherches. In-8°, VI+248 pp. « *Bibliothèque d'Histoire littéraire et de Critique* ». Paris, Garnier, 1937. Prix : 15 fr.

لافونتين

لا يزال في حياة لافونتين كثير من الغوامض : في اخلاقه ، ونشأته ، وطريقة تهذيبه ، ونصيبه من الابتكار . ولا يخفى ما تترك هذه الغوامض من مجال واسع للفرضيات والمناظرات . وهو ما اهاب بالمؤلف ـــ الاختصاصي بشؤون لافونتين ، منذ ان ظهرت دروسه القيمة في « امثال » لافونتين وروحه التهكمية وطبعته النفيسة لهذه « الامثال » ـــ الى اتحافنا بهذا الأثر الجديد يحاول فيه جلاء بعض الغوامض في حياة الشاعر وشخصيته ؛ عارضًا في قسم اول لخلق لافونتين ، وديونه الادبية لافلاطون ، ومونتانيه ، وغاسندي ، ومظهر ديانته ، ونزعته الاخلاقية . خاصًا القسم الثاني بطائفة من الابحاث التفصيلية في ادبيات الشاعر ، مع ما يسندها من المصادر والشروح ، وهو يفيد الاختصاصيين بهذه الشؤون . على ان فصله في قيمة « الامثال » الأخلاقية ، وما حفظه الشاعر في قلبه من ايمان عميق ، رغم بعض التراخي في حياته ، يظهر على فائدة جليلة لجميع المثقفين .

ب . ميش

CHARLES BEUCHAT, **Paul de Saint-Victor**. In-12, 252 pp. Paris, Librairie académique Perrin, 1937. Prix : 15 fr.

پول دي سان ڤيكتور

لم يستحق الصحافي پول دي سان ڤيكتور هذا النسيان الذي يظهر حول اسمه في العالم الادبي. ولهذا قام المؤلف يعيد الى ذهن القرّاء شخصية كانت على قسم وافر من اللمعان. ولا سيا بين السنتين ١٨٥٩ و١٨٨١ حيث عُرف الصحافي بانتقاداته الادبية، وبصداقته لكبار الكتّاب والفنّانين في ذلك العصر، اذ اجمع الناس على الاعجاب باسلوبه الانشائي، وباحكامه الادبية. ولا شك في ان الاطلاع على آثاره يسهل تفهّم الحركة الادبية والفنيّة في القرن التاسع عشر. وقد درس المؤلف، بعد حياة المترجَم، صفات الرجل، والناقد، والمؤرخ، والمنشئ، تاركاً للقرّاء الرجوع الى آثار رجل احترمه اكثر معاصريه احتراماً مخلصاً.

ب. ميش

ALFRED DE VIGNY, Stello. Édité avec une Introduction et des Notes par M. REVON. « *Classiques Garnier* ». Paris, Garnier, 1937. Prix : 9 fr.

ستيلّو لألفرد دي ڤيني

لا تخفى قيمة هذا القسم من «استشارات الدكتور نوار» لالفرد دي ڤيني، وفيه ينتقد الشاعر انواع الحكم جميعها سواءٌ أكانت ملكيةً مطلقة او برلمانية او ديموقراطية. حتى ان جيلبر، وشاترتون، وشينيه يقضون جميعاً ضحايا الأثرة الاجتماعية. هذه النظرية لم تفقد قيمتها بعد. وحسناً فعل الناشر باعداد هذه الطبعة النفيسة الموافقة للطبعة النهائية الّا في بعض علامات الوقف، والمفيدة بمقدّمتها الحافلة بالمعلومات عن ظروف التأليف، وآراء النقّاد فيه.

ب. ميش

D^r^ JEAN LOUIS FAURE, Au Groenland avec Charcot. In-16, 256 pp., 42 gravures et 5 cartes. *Collection Nelson illustrée*. Paris, 1937. Prix : 19 fr. 50.

مع شركو في غروئنلند

هو كتاب جديد، يأتي بعد الكثير من نوعه، على اثر الفاجعة التي ذهبت

بحياة الرائد المشهور شاركو . كان من نصيب المؤلف ان يرافق الفقيد ، سنة ١٩٣٢ ، الى بلاد غروئنلند ؛ ثم اتت الفاجعة فاحيت فيه تذكارات وحوادث توالت في تلك الأيام التي لا تُنسى . فما كان منه الّا ان اخرجها باسلوب شائق جذّاب يفيد ، في ما يفيده ، مصدرًا قيّمًا لتصوير شخصية شاركو.

ا. ب.

Yves Simon, **La Campagne d'Éthiopie et la Pensée Politique Française.** « *Courrier des Iles* ». In-8°, 130 pp. Paris, Desclée de Brower, 1937. Prix : 10 fr.

حرب الحبشة والفكرة السياسية الفرنسوية

لم تنته المناظرات والمشاحنات التي اثارتها حرب الحبشة الأخيرة ، وسوف لا تنتهي في أمدٍ قريب. ذلك ان الأهواء التي يثيرها هذا الموضوع تحول في الغالب دون اعمال الذهن الخليّ. وقد كان من همّ المؤلف ان يشرح ما هي العوامل التي دفعت الفرنسويين الى مواقفهم المختلفة تجاه الحكومة الايطالية ، وان يحكم عليها وفقًا للفلسفة والاخلاقيات المسيحية . فيبرهن عن تجرّد يقوده في متاهات هذا المشكل العويص الى موقف مخلص رفيع هو موقف المسيحي العادل.

ب. ميش

وحي الصحراء

جمعه محمد سعيد عبد المقصود وعبدالله عُمر بلخير

٤٢٦ ص. متوسطة — مصر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

جمع هذا الكتاب نماذج متفاوتة الطول والقيمة من الادب الحجازي المعاصر منظومًا ومنثورًا ، بعد ان قُدّم له ببحث تاريخي تنــاول تطوّر الادب في الحجاز منذ العصر الجاهلي الى اليوم. وللكتاب تمهيد بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك اشار فيه الى ان اكثر الكتاب والشعراء المنتخَب لهم « لم يبلغوا الثلاثين ، ولم يتجاوز الاربعين فيهم احد » فهم من ابنــاء القرن العشرين يبشّرون بنهضة مباركة في القطر الحجازي ، اذا ما نضجت افكارهم وتكاملت ثقافتهم

التصوير في الاسلام عند الفرس

للدكتور زكي محمد حسن

٩٦ ص. بقطع ٤، ٥٤ لوحة فيها ٧٠ شكلاً – لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر القاهرة، ١٩٣٦

يعرف قرّاء «المشرق» الدكتور زكي محمد حسن بآثاره في الفنّ الاسلامي في مصر (المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٥٠) وفي كنوز الفاطميين (المشرق ٣٥ [١٩٣٧] ٤٦٠) وان له من ثقافته الواسعة، ومن مركزه في امانة دار الآثار العربية لعوناً في هذه الدروس القيّمة التي يسهّل فيها معرفة الفنّ الاسلامي على اختلاف عصوره وبيئاته. اما موضوع الكتاب الحالي فلا يقلّ اهمية عن موضوع الفنّ الفاطمي، ان لم نقل انه يفوته تأثيرًا كما فاقه طولَ زمن، وسعةَ انتشار، وغنى مادّة. فلا عجب ان يكون للكتاب وقع بليغ في تاريخ تشعّبات الفنّ الشرقي الذي عمل الإسلام على تطوّره بعض التطوّر، ولكنه ظلّ محافظاً، في كل بلد، على اهم ميزاته الاصلية.

صُدّر الكتاب بكلمة للمستشرق غاستون ڤييت قدّم فيها الى القرّاء مؤلّف البحث. اما المؤلّف فقد قدّمه الدكتور عبد الوهّاب عزام الخبير بالشؤون الفارسية. ثم يبدأ الكتاب بمقدّمة تاريخية واضحة في ايجازها تلخّص تقلّبات الدول على البلاد الايرانية. حتى اذا انزل المطالع تلك البقعة من المكان والزمان، وصل الى «نشأة التصوير الفارسي»، فتتبع الآثار الفارسية عصرًا فعصرًا ومدرسةً فمدرسة، من المدرسة العراقية، او مدرسة بغداد، الى المدرسة الفارسية التترية، الى مدرسة بخارى، الى المدرسة الصفوية، واذا به يصل الى العصور الحديثة، فيدرس مظاهر الفنّ على عهد الشاه عبّاس وخلفائه. يؤيّد كل ذلك سلسلة من اللوحات الجميلة، جليّة المظهر، حسنة الطبع، على الغالب. ويختم الكتاب بمصادر البحث في العربية، والفرنسوية، والانكليزية، والالمانية، وبجدول ابجدي باسماء الأعلام. فيكون اثرًا لا مندوحة من الاطلاع عليه لكل من يهمّ بدرس المدنيّة الاسلامية.

ف. ا. ب.

منشورات مديرية الآثار القديمة في بغداد

بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد

٣٦ ص . صغيرة ، ٤٧ لوحة و٧ اشكال – بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٥

دليل معارض القصر العباسي

٣٤ ص . صغيرة ، ١٨ لوحة – بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٥

جسر حربي

٨ ص . صغيرة ، ٢٠ لوحة – بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٥

دليل خرائب بابل وبورسيبا

٣٠ ص . متوسطة ، خريطتان و١٨ صورة – بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٧

الأخيضر

٤٩ ص . صغيرة ، ٤٦ لوحة و١٣ شكلاً – بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٧

دليل المتحف العراقي

١٤٠ ص . متوسطة ، ١١٤ صورة – بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٧ – الثمن : ٨٠ فلساً

خريطة العراق الأثرية

١٠٠×٤٠ سنتيمتراً ، ملوّنة

قد يكون العراق في طليعة بلدان الشرق الادنى اهتماماً بتاريخه وآثاره كفانا برهاناً ما وصفناه في هذه السنوات الاخيرة من كتب جديدة في التاريخ العراقي مجملاً ومفصّلاً ، وهذه المنشورات القيّمة التي قامت بها مديرية الآثار القديمة في بغداد.

يتناول الكرّاس الأول وصفاً دقيقاً لبقايا القصر العباسي في قلعة بغداد ، وهو المعروف « بقصر المأمون » ، وما قامت به مديرية الآثار من ترميمات . يزيّن كل ذلك اشكال واضحة ولوحات جليّة الطبع في اكثرها.

وبعد ان تمّ ترميم القصر رأت الحكومة ان تنقل اليه « معرض الذكرى » للملك فيصل الاول ، وان تؤسس فيه معرضاً للصور والخرائط المتعلقة بمدينة بغداد وسائر المدن الأثرية في العراق ، عارضةً نماذج الآثار النفيسة . وقد وضعت لهذه المعارض دليلاً مختصراً ، هو الكرّاس الثاني.

على تسعين كيلومتراً الى شمالي بغداد ، جسر قديم على نهر الدجيل يرتقي

الى عهد الخليفة المستنصر (١٢٢٦–١٢٤٢) ، من اواخر الدولة العباسية . وهو مشيد ومعقود بالآجر ، وعليه كتابة يبلغ طولها مائة متر تشير الى بناء الجسر في زمن المستنصر سنة ٦٢٩ هـ. (١٢٣١–١٢٣٢ م) وقد درست هذا الجسر مصلحة الآثار وخصت به الكراس الثالث حافلًا باللوحات الجميلة.

اما الكراس الرابع فدليل الى خرائب بابل وبورسيبا ، بدأ بنبذة عن موقع بابل ، وتاريخها ، ووصف الحفريات التي أجريت في موقعها ، وما اسفرت عنه من تخطيط المدينة بتحصيناتها الداخلية والخارجية ، وابوابها ، وقصورها ، ومعابدها ، وجنائنها المعلقة ، وبيوتها ، وما في كل ذلك من نقوش وتزاويق . بقي صفحتان من الكراس وُصفت فيهما خرائب بورسيبا ، وهي مدينة مجاورة لبابل . وقد رسم الكراس صورة واضحة عن كل هذه الخرائب.

وكذلك القول عن الكراس الخاص بقصر الأُخيضر المشيد في قلب البادية ، على نحو ٥٥ كيلومترًا من كربلاء الى الغرب الجنوبي. ولعل لوحات الأُخيضر ، ورسومه اجلى ما ظهر من امثالها في هذه المنشورات، وكذلك الشروح الموجزة، حتى يُعتبر الكتاب ملخصًا كافيًا عن هذا القصر العجيب.

واما الكراس الاخير فلا بدّ منه لكل من شاء الاطلاع على محتويات المتحف العراقي ، وفيه كثير من الآثار النفيسة العريقة في القدم، الماثلة شواهد حيّة على مدنية من اقدم مدنيات العالم المعروفة.

وليس اوضح في الاشارة الى موقع الآثار العراقية جميعها من الخارطة الكبيرة التي نشرتها المديرية نفسها ، دالّةً على التلول ، والاماكن ، والمدن الأثرية ، مع دلالتها على المدن العصرية ، والطرقات ، والمناطق الخالية . فاستحقت شكر الأثريين والمؤرخين والجغرافيين معًا.

ف . ا . ب .

نشوء الأمم

بقلم انطون سعاده

الكتاب الاول : ١٨٢ ص. متوسطة – بيروت ، مطبعة الاتحاد ، ١٩٣٨ – الثمن : ١٠٠ غ.ل

يرى المؤلف ان كتابه « نشوء الامم » هو الاول من نوعه في اللغة العربية بعد كتاب ابن خلدون ، ويقدّمه الى رجال الحزب القومي السوري فيستهم

بكل جدّ ورزانة « رجال النهضة القوميّة الجبارة ونساءها العاملين لحياة سورية ومجدها ». ان صفة « جبّارة » تطلق على القومية السورية في هذه الايام لَغريبة ، وقد رأينا اهل دمشق ينادون بالعروبة ، والترك يستولون على الاسكندرونة ، واهل الجزيرة واللاذقية يأبون الاتحاد بدمشق . . . وهل يدلّ مثل هذا الكلام في مثل هذه الساعة على كبير اتزان ؟

ويهتم الاستاذ سعاده بقضية لم نكن نظنه متخصصاً لها ، على تفاهتها ، اذ يفضّل على الارقام المتداولة في اللغة العربية والمعروفة « بالارقام الهندية » الارقام المتداولة في اللغات الغربية والمشهورة « بالارقام العربية » فيكتب مثلًا « 1938 » بدلًا من « ١٩٣٨ ». وكنت اظن ان جهود المؤلف العلمية في القوميات لا تترك له وقتاً للابتكار في الشؤون التافهة ابتكارًا غريباً .

ويناقض هذا التكلّف في تقديم الكتاب ضعف المبنى من حيث اللغة المضطربة ، والاغلاط المطبعية العديدة .

امّا التأليف فان فيه سبعة فصول في نشوء النوع البشري ، والسلائل البشرية ، والارض وجغرافيتها ، والاجتماع البشري ، والمجتمع وتطوره ، ونشوء الدولة وتطورها ، والاثم الكنعاني .

في جميع هذه الفصول ، تأثر واضح بآراء المفكرين الالمان . ينقل المؤلف مبادئ اعتنقها اصحاب النظريات المتطرفة في القوميات الاوربية ، ويورد في كتابه احكاماً لا يصحّ تطبيقها في جميع الاحوال وفي جميع البلدان . وهو ما يقرّ به عرضاً في سياق كلامه اذ يقول عن رومة انها « مدينة بريّة في الدرجة الاولى وكانت محاطة بأقوام تضاهيها وبعضها ارقى منها ثقافة . . . فساعد ذلك على الرغبة في ادخال هذه الاقوام في نطاقها السياسي والاجتماعي ومن هذه الوجهة كانت ظروف رومة تختلف عن ظروف صور » (123)

وايضاً : « شيء واحد لم تدركه الامبراطورية البحرية القديمة « الفينيقية » هو وجوب التناسب بين المركز والاطراف . فالامبراطورية البحرية لا غنى لها عن الارض والقوات البرية . . . » (116)

افلا يرى المؤلف ان هذا الاختلاف بين حالة ايطالية وحالة « سورية »

الجغرافية هو نتيجة اختلاف اعق؟ ان سكان رومة والاقوام المجاورة لها الفوا امة واحدة ، امَّا صور وسائر المدن الفنيقية فانها لم تكن ترى ، منذ القديم ، الّا اعداء لها ، ما وراء لبنان.

ويحاول الاستاذ سعاده ، في الفصل الخامس ، ان يطبّق بعض الآراء في تطوّر الامم على الامة «السورية» فيتكلم عن «المدينة البحرية» التي انشأها الفنيقيون (81) ، وعن الحروف الابجدية التي اكتشفوها (83) ، وعن امبراطورية صور البحرية (115) . وعبثاً تبحث في جميع هذه الامثال عن شيء لا يخص الارض اللبنانية . فاذا انحصر تطوّر القومية هذه في لبنان ، فلأنها قومية لبنانية لا قومية سورية.

ان بين العناصر التي تكوّن الامة عنصرًا اساسيًا لا بدّ منه ، هو التاريخ . وقد اقرّ به المؤلف في قوله: «فلولا ما حدث من وحدة الاغريق بعد الاسكندر لظل تاريخ الاغريق تواريخ اثينا واسبرطة وطيبة ومكدونيا الخ . . . » .

وفي الحقيقة لا يوجد تاريخ لسورية «الموحدة» المستقلة عن سائر جيرانها . وقد اعترف النائب السوري الاستاذ رباط في «الوحدة السورية والمصير العربي» بهذا التاريخ للبنان اذ قال عن الامة اللبنانية : ان لها «شخصية تكوّنت ونمت ، احيتها الحروب واليقظة الدائمة ، وحفظتها الطبيعة الصلبة» (١٤٧) وينطبق هذا التعبير على وصف موسوليني للامة عموماً: «ليست جنساً ، ولا بقعة جغرافية معينة . . . بل هي شخصية»

وهذه هي الشخصية التي نقصت سورية التي يعنيها المؤلف فظلّت بقعة جغرافية وجغرافية فقط ، واذاً فلا يصحّ الكلام عن «أمة سورية» تشمل سكّان لبنان ، وسائر العناصر من عربية وتركية الموجودة بين «الفرات وطورس والبحر والصحراء».

ن . د .

املي سرسق

بقلم جرجي نقولا باز

٢٠٠ ص. متوسطة — المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩٣٨

اذا عُدَّ ارباب الاحسان في بلادنا كانت السيدة املي سرسق في الطليعة . وقد قضت ستين سنة توالي اعمال البرّ والرحمة فمن مدرسة ، الى ميتم ، الى مستشفى ، الى رهبنة ، الى كنيسة ، لا ترمي الى غاية مادّية ، ولا تطلب مكافأة زائلة . الّا ان هذه الاعمال لم يلبث ان انتشر عرفها ، فنظم فيها الشعراء وكتب الكتّاب ، وتتابعت اوسمة الشرف على المحسنة ، ونصب تمثالها في مدرسة زهرة الإحسان . فرأى صاحب الكتاب ، وهو مؤرّخ الشهيرين والشهيرات من ابناء عصرنا ، ان يدوّن كل ذلك فجمع مئتي مثال من كتابات الجرائد والمجلّات ، ومن نظم اربعين شاعرًا ، ونثر جملة خطباء ، واعمال عدة جمعيات ونصّ مراسيم الاوسمة وسندات الاوقاف . وحسنًا فعل !

في سبيل العربية

بقلم ادوار مرقص

٤١ ص . متوسطة — اللاذقية ، مطبعة الرغائب ، ١٩٣٨

خطاب القاه الاستاذ ادوار مرقص في النادي الوطني باللاذقية ، وقد ضمّنه « لفتة الى الدخيل وصحة الانشاء وحسن النقل عن الاعجمية يتقدمها دفع تهم عن لساننا العربي ودحض آراء غريبة بشأنه » .

* مطالب الشعب المغربي * — ٥٩ ص . متوسطة صغيرة — المطبعة المهدية ، ١٩٣٨ — « مقدمة من اللجنة التنفيذية لحزب الاصلاح الوطني » الى سموّ الخليفة السلطاني مولانا الحسن ايّده الله والى مجادة المقيم العام في فاتح عام ١٣٥٧ ه

* برنامج الجمعية الخيرية المارونية * عن اربع سنوات ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ — ١٣٢ ص . متوسطة ، بيروت ، مطبعة جدعون ، ١٩٣٨

* برنامج جمعية طوبيا البار المارونية * اعمال السنتين ١٩٣٦ و١٩٣٧ — ٣٢ ص . متوسطة ، بيروت ، المطبعة الحديثة ، ١٩٣٨

* تقرير عن اعمال الجمعية الخيرية للقديس منصور دي پول ، في دمشق * عن سنة ١٩٣٦ — ٥٦ ص . متوسطة ، حريصا ، مطبعة القديس بولس — وعن سنة ١٩٣٧ — ٧٢ ص . متوسطة ، حريصا ، مطبعة القديس بولس .